الأجيال الثلاثة

أحمد الخميسي

كيان للنشر والتوزيع

الأجيال الثلاثة

مجموعة قصصية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

"الخميسي ثلاثة أجيال في رحاب القصة "

هذا الكتاب عجيبة بين الكتب، لا قبله ولا بعده يجمع تاريخ أسرة ممتدة معجونة بثرى الإبداع، كتاب هو حصيلة إبداع ثلاثة أجيال متصلة من أسرة واحدة في فن القصة القصيرة هي أسرة الخميسي، الجد عبد الرحمن الخميسي، ثم الابن أحمد الخميسي، ثم الحفيدة آنا أحمد الخميسي. وإن كان الجد عبد الرحمن الخميسي -جذر هذه الشجرة وأصلها العريق- قد عُرف شاعرًا في المقام الأول، حيث شهد له ناقد كبير كالدكتور لويس عوض بأنه "آخر الرومانسيين الكبار في الشعر العربي" ورأى الدكتور مندور أن الخميسي "قد بلغ بشعره حد السحر". رغم هذا كان الخميسي الكبير قاصًا مجيدًا، ربما يرجع ذلك إلى الزخم الحياتي المذهل الذي عاشه الخميسي متنقلاً بين مختلف المهن الشاقة، فقد عمل بقالاً ومصححًا في مطبعة ومعلمًا وجرب النوم في الحدائق وعلى كراسي المقاهي. يقول في مذكراته حين انتقل من المنصورة إلى القاهرة "أنا في القاهرة بلا أهل ولا دار.. ولا أملك شيئًا غير إرادة الحياة.. ليس في جيبي مليم. ولكن قلبي غني بالأحلام. لم تكن لي أسرة ذات جاه، بل لم يكن لي قريب يستطيع أن يعاونني، وقد أنفقت ليلتي نائمًا على أريكة في حديقة عامة. وحين أيقظني الصباح، توجهت إلى دار الكتب، وتناولت إفطاري وأنا سائرعلى قدمي، وكان ذلك الإفطار بعض حبات من الحمص بقيت في

جيبي من الأمس. وكانت بعض المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة تنشر لي قصائد مطولة من الشعر أرسلها إليها من بعيد". وقد انعكست هذه الحياة الثرية المتنوعة للخميسي الكبير في تنوع الفنون التي طرق أبوابها فانفتحت أمامه شعرًا وقصة وتمثيلاً وإخراجًا بل وموسيقى!

نحن إذن أمام ظاهرة لافتة، ظاهرة الأسر الأدبية التي تتوالد الموهبة فيها وتمتد من جيل إلى آخر.

وقد انشغل العرب قديمًا بذلك، وكثر وجود شاعر ابن شاعر، وخصص الجاحظ لذلك فصلاً في "المحاسن والأضداد". وعرفت الحركة الأدبية في مصر عائلات تمتد فيها الموهبة وتورث من جيل إلى آخر، لعل أشهرها العائلة التيمورية بدءًا من الجد الأكبر إسماعيل باشا تيمور، ثم ابنته الشاعرة عائشة التيمورية التي نظمت الشعر بالعربية والتركية والفارسية، وابنه أحمد باشا تيمور محقق التراث وصاحب خزانة المخطوطات التاريخية، الذي اشتهر بأنه "أبو النابغين" الكاتبين محمد تيمور مؤسس القصة القصيرة في مصر ومحمود تيمور. هناك أيضًا عائلة السباعية التي بدأت بالأديب محمد السباعي (١٨٨١- ١٩٣١) ثم ابنه الكاتب المعروف يوسف السباعي بأعماله المعروفة "رد قلبي"، و"أرض النفاق" وغيرهما. لدينا أيضًا العائلة الأباظية التي برز منها الكاتب ثروت أباظة، وكان والده دسوقي أباظة كاتبًا، وعمه هو الشاعر المعروف عزيز أباظة، وعمه الثاني

الكاتب فكري أباظة. هناك الأديب الكبير توفيق الحكيم وكان له ابن موسيقار هو إسماعيل الحكيم الذي توفي مبكرًا. وأخيرًا لدينا عائلة الشاعر الكبير صلاح جاهين، وابنه الشاعر بهاء جاهين، والشاعر الكبير فؤاد حداد وابنه الشاعر أمين حداد. هي الظاهرة ذاتها في الغرب، وربما كان أشهر تجلياتها ألكسندر دوماس الأب، ثم الابن. أيضًا كان والد الفنان بيكاسو رسامًا، وكان والد الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف شاعرًا.

لا يستطيع أحد أن يفسر كيف تمتد الجينات الوراثية لتثمر ظاهرة الأجيال الأدبية داخل أسرة واحدة، ولا لماذا تتوقف!

لقد أشرنا إلى الخميسي الكبير، أصل الظاهرة، وسوف نتحدث عن الحفيدة آنا أحمد الخميسي، آخر ما أورق على فروع تلك الشجرة العريقة. ولدت آنا في موسكو عام ١٩٨٧، والدها القاص المعروف أحمد الخميسي، ووالدتها روسية! تشربت آنا ثقافة روسيا ولغتها ثم قررت بعد الثانوية العامة أن تشد رحالها إلى دفء مصر. أنهت دبلوم الأدب الإنجليزي بكلية الآداب جامعة القاهرة، وكانت خلال ذلك تكتب قصائدها وقصصها تارة بالإنجليزية التي تتقنها وتارة بالروسية لغتها الأم. وقصص آنا التي سيطالعها القارئ هنا مترجمة من اللغتين إلى العربية. نشرت آنا بعض قصائدها في روسيا وبعضًا من قصصها القصيرة في القاهرة. وسيلمس القارئ تحديدًا في قصص آنا، خصوصًا قصتها

"الكستناء" ذلك الخيط الرفيع المرهف من الحيرة بين وطن ولدت فيه، هو روسيا، ووطن أحبته هو مصر. تقدم لنا آنا في قصتها "الكستناء" عملاً فنيًا دقيقًا وشجيًا.

إذا كان فن القصة القصيرة قد جمع تلك الأجيال الثلاثة فهل جمعتها الهموم ذاتها؟ وهل ثمة ما هو مشترك بين بدايات الأسرة في الأربعينيات لدي الجد، ثم استمرار ذلك عند أحمد الخميسي في السبعينيات والتسعينيات، ثم آنا مؤخرًا؟ هل ثمة ما يوحد نظرة أو ميول أولئك الكتاب الثلاثة رغم تدفق نهر الزمن؟

******

لقد بسط الهم الاجتماعي ظله على قصص الخميسي الكبير. يكفي لإدراك ذلك أن نلقي نظرة على عناوين مجموعاته القصصية «قمصان الدم»، «صيحات الشعب»، "لن نموت»، "دماء لا تجف»، "رياح النيران» وغيرها. وترتبط معظم قصص تلك المجموعات بحياة وشقاء الشعب المصري في الأربعينيات وكفاحه من أجل الاستقلال والحرية. وفي تقديمه لمجموعة «قمصان الدم» يشير الكاتب الكبير يوسف إدريس إلى ملمح مهم، حين يقول إن القصة القصيرة كانت قبل الخميسي «وقفًا على، طبقة معينة من الناس يكتبونها، وطبقة معينة يقرؤونها. وكان من أدوار الخميسي الخطيرة أنه حطم طبقية القصة، فأصبح كل ذي تجربة يكتب، وكل ذي حياة يقرأ، وصار البقال والكمساري،

والصراف والبواب من قراء القصة المصرية». ربما تكون طبيعة المرحلة التاريخية العنيفة التي كانت مصر تمر بها قد فرضت ذلك التوجّه الاجتماعي الواضح. وبهذا الصدد يتوقف الناقد الكبير د. علي الراعي في مقدمته لمجموعة «دماء لا تجف» عند فهمه للخميسي من زاوية أنه إنسان أولاً ثم فنان ثانيًا، ويقول «ولو أننا أمعنّا النظر في هذه المجموعة من قصص الخميسي لوجدنا أن موضوعها الأساسي هو بالذات هذا الالتقاء البشري –جماله، وخيراته والعوائق التي تعوقه، والوسائل التي ينبغي أن تتخذ للتغلب على هذه العقبات.. وإيمان الخميسي بالإنسانية هو الذي يحدد له موضوعه واتجاهه ووسائله الفنية.. وفوق هذا نجد روح الخميسي باسطة ظلها الوارف على القصص من أولها لآخرها، وهي روح فنان يؤمن بأن الإنسان سينتصر إن لم يكن اليوم فغدًا». ويتوقف د. الراعي طويلاً عند قصة «النوم» للخميسي، ويقول إنه يعتبرها «أروع قصص هذه المجموعة.. تجعل منها علامة مميزة، ليس فقط في تاريخ الخميسي القصصي بل أيضًا في تاريخ قصتنا المصرية المعاصرة».

هذا الهم الاجتماعي، مع اختلاف الأساليب الأدبية سنجده أيضًا ملازمًا لأحمد الخميسي في مجموعاته القصصية الأربع، بدءًا من المجموعة المشتركة "الأحلام، الطيور، الكرنفال" عام ٦٧، ثم مجموعته "قطعة ليل" عام ٢٠٠٣، ثم مجموعة "كناري" ٢٠١٠، ثم "رأس الديك

الأحمر" عام ٢٠١٢. سنلمس ذلك الهم الاجتماعي في تلك المجموعات كلها، في قصة "السند" و"جلباب أزرق" و"نظام جديد"، و"حرج خفيف" و"باب مغلق" وغيرها. وقد بدأ أحمد الخميسي رحلة الكتابة مبكرًا، حين نشر وهو في الثانية عشرة من عمره قصة بعنوان "أم نبيل"، نشرها له والده على صفحات جريدة الجمهورية داخل عموده الأسبوعي الثابت حينذاك المسمى "حصاد الأسبوع". وفي أبريل ١٩٦٥ نقرأ له قصة "الشوق" في مجلة القصة، بعدها قدمه محمود السعدني إلى قراء مجلة صباح الخير في ٥ مايو ١٩٦٦ ونشر له قصه "رجل صغير". إلا أن اللحظة الفارقة كانت من دون شك حين توقف يوسف إدريس عند قصص أحمد الخميسي وقدم لقصته "استرجاع الأحلام" في مجلة الكاتب ديسمبر ١٩٦٦، قائلاً "ضعوا هذه القصة بعد قراءتها فيما شئتم من خانات، أنا شخصيًا أضعها في الخانة الجيدة جدًا، ثم اعلموا أو فلتعلموا أن كاتبها سنه ثمانية عشر عامًا، واحتاروا، مثلي، أين تضعونها بعد هذا". في قصصه يخرج أحمد الخميسي من إطار الواقعية التي تلامس حافة الحياة إلى عالم آخر، واقعي لكنه مفتوح على الخيال، بل والتصوف، والقدرة على تناول الهم الاجتماعي بلغة شفيفة دقيقة موجزة، وفي شكل أدبي محكم، متسقًا مع تطور الشكل القصصي.

يمتد ما قال عنه علي الراعي «الاهتمام بالإنسانية» من الجد إلى الأب إلى الحفيدة. سنقرأ ذلك في قصتها

المرهفة «الأيدي» حيث يتحول الهم الاجتماعي من بحر فياض إلى قطرة مركّزة على زجاج لوحة عامة مدهشة. في «الأيدي» سنرى قصة «النوم» لعبد الرحمن الخميسي، وقصة «جلباب أزرق» لأحمد الخميسي، قصة الشقاء لكن في سبيكة مختلفة، يصبح فيها صوت الشقاء أشد خفوتًا ورقة، وربما أكثر إيلامًا! لكن آنا وليدة الشعبين والثقافتين تطرح موضوعًا جديدًا، هو غربة الإنسان بين وطنين! يتضح ذلك بقوة في قصتها «جيتار أسود صغير» حيث نرى لحظة اغتراب مزدوجة عبر لغة شفيفة ممتعة، وهو ما سنلمسه أيضًا بقوة في قصتها «الكستناء". خلال ذلك كله تظل نقطة الانطلاق المشتركة بين الجد العظيم عبد الرحمن الخميسي، وأحمد الخميسي، وآنا هي تلك الروح الإنسانية العذبة المهمومة بالآخرين، وبالوجود، وبعذابات الروح، مع اختلاف التعبير عن كل ذلك باختلاف الأجيال. الخلاصة أننا أمام كتاب عجيب بين الكتب، ممتع، وجدير بالقراءة على المستوى الفني وعلى مستوى الظاهرة، فهنيئًا للقارئ بذلك العمل.

إبراهيم حمزة

آنا الخميسي

الكستناء

امتدت اليد تمسح بنعومة الكتف الطفولية التي برزت من تحت الملاءة. "آن الأوان لتستيقظي". شقّت الكلمات بدفئها برد الحجرة وعتمتها. تدلت الساقان الصغيرتان من على حافة السرير العالية. تأرجحتا في الهواء دقائق ثم قفزتا إلى الأرض. سرت قشعريرة سريعة في البدن. ابتسم الوجه الطيب:"هيا. انتعلي الشبشب يا شموسة واذهبي لتتناولي الإفطار". دبّت الساقان النحيفتان تخبط الأرض بالشبشب الضخم نحو الحجرة الثانية. تمتد الكفان أولاً فتتسلق المقعد، ثم الركبتان. عبر النافذة العريضة القريبة من المنضدة تصل أشعة الشمس التي تخترق خضرة شجر باذخة. يد رجالية كبيرة بأصابع طويلة قوية تضع على المنضدة طاسة تئز فيها بيضتان صغيرتان. تختطف اليد الصغيرة الشوكة وتصبح الطاسة فارغة بعد دقيقتين.

الفانلة البيضاء واللباس الأبيض والشبشب الضخم ذاته يهرول بعجلة إلى البستان المحدَّق بالبيت. في لحظة تطير كل فردة من الشبشب في ناحية. تتمزق الفانلة وهي تتسلق الشجرة العالية المنتصبة أمام النافذة. عند بلوغ ذلك الغصن يصبح النهر مرئيًا.

تندمج السنوات كلها والطفولة كلها في صيف طويل تقوم فيه الوجوه المُحِبّة والأيادي ذات التجاعيد بإعداد الإفطار كل صباح. في الليل تُسمع أصوات الجداجد وصفير القاطرات البعيدة. يبدو البستان الصغير غابة.

تبقى في الفم رائحة العنب الأسود. تنتصب أمام العينين شجرة الكستناء عالية. لكنك لا تعرفين اسم الشجرة، ستعرفينه فقط عندما تصبحين كبيرة، قبل أن يباع البيت الصغير والبستان، وحين تغيب الوجوه والأيادي ذات التجاعيد في الماضي، أما في هذه اللحظة فإنك تعلمين فقط أنه من هذه الشجرة ومن عند هذا الغصن يصبح مرئيًا شريط النهر الضيق الصافي.

حياة كل إنسان نهر. البعض منا حياته تجيش وتمور، حياة البعض الآخر تتحول إلى جدول صغير، حياة ثالثة تجف تمامًا، وأخرى تصب في محيط وتصبح جزءًا منه. لكن الزمن يمضي أسرع مما تتدفق المياه. خلال خمسة عشر عامًا أجد نفسي ثانية أمام نهر آخر، قدّر له أن يكون منبع الحضارة، أمواجه أشد قتامة كأنما تشبعت بآلاف السنين المنصرمة. أمضى مع صديقتي إلى منزلها لنستذكر الدروس استعدادًا للامتحانات. نعبر الكوبري بسيارتي، لا أملك إلا أن أبطئ من سرعتنا وأنا أنظر مفتونة إلى سطح النيل. تمس ليلى كتفي برفق. تهمس بخفوت "إلى اليمين". في بيتها يقابلني والداها بترحاب مبتسمين. يشدان على يدي"أهلاً وسهلاً". أشعر كأني شربت قدحًا من الشاي المثلّج في يوم حار. يهدأ القلق في داخلي. إنهم سعداء بقدومي. يفرشون المنضدة بأطباق السمك المقلي والأرز والسلاطة. لم تعد ثمة مساحة للمزيد من أطباق الطعام. تضع لي والدة ليلى

في طبقي حفنة من هذا وحفنة من ذاك، خشية أن أقوم من خجلي جائعة. نجرجر أنفسنا بعد الغداء الفاخر بصعوبة من المنضدة، ويخامرنا شعور بالكسل والرغبة في النوم، لكن لا بد من الدراسة.

حجرة ليلى صغيرة لكنها مريحة. سرير ضيق فوقه ثلاثة أرفف عليها كتب مرتبة. في الجهة المقابلة صوان من الخشب الفاتح اللون. الحائط -حيث المكتب- مطلي بلون آخر. فوق المكتب علقت لوحات مستنسخة. ثبتُّ بصري على إحدى اللوحات.

- هل تعرفين اسم الشجرة التي في هذه اللوحة؟

- لأ. ما اسمها؟

- الكستناء. كان لدى جدي قطعة أرض صغيرة تحيط ببيته. في مواجهة البيت نمت وارتفعت شجرة كستناء. أذكر كيف أني بعد الإفطار كنت أتسلقها وأنظر إلى النهر.

تنصت ليلى باهتمام إليّ. لكن كيف أحكي لها عن طعم العنب الأسود وصوت الجداجد ليلاً؟ كيف أنقل إليها شعوري بالحزن على ما مضى وما لن يعود أبدًا؟

أقول بصوت نشط: يا الله! هيا بنا نستذكر الدروس.

أصعد إلى السرير بقدمي وأفتح الكتاب على مقال فرويد عن اللا وعي والأحلام. تختلط العبارات في رأسي ويتوه معناها في ضباب. لا ألحظ كيف أني نصف مغيّبة أغرق في سحب من الدخان. ها أنا في قارب يلفّه ضباب كثيف من كل ناحية فلم تعد مقدمته مرئية. لا شيء يبعث على البهجة. كل ما تبقى لي أن أسلّم

نفسي للتيار.. خلال عدة أمتار يتبدد الضباب. فجأة لا أعلم من أين تظهر أمامي جزيرة، لكن المياه التي تحيط بها صافية من ناحية ومعتمة من الناحية الأخرى. يتلألأ سطح الجزيرة الذهبي خفيفًا. يرسو القارب على الشاطئ. أمضى حافية القدمين على الرمال. أقف في المنتصف. أتجمّد لحظة وأشعر بقدمي تسوخان في العمق. تطول أصابع قدمي وتتحول إلى جذور. قدماي وجذعي يتشجر ويكتسي بلحاء الأشجار. أكتافي وذراعاي تطول السماء. ها هي كفاي الطفلتان مورقتان. أشد نفسي لأعلى فأعلى. تختفي في الضباب الجزيرة الرملية الصغيرة التي يغسل ضفتيها نهران. لا أذكر الماضي ولا المستقبل. أنسى أين أنا ولماذا. كل ما أعرفه فقط أني الكستناء.

*****

الأيدي

كانت سيارتنا السوداء اللامعة تطير في الهواء خلال شوارع المدينة المزدحمة، مخترقة سيل الحرارة المتدفقة والظلام الحالك السواد بمصابيحها الأمامية. تردد صدى صوتك في عتمة الصالون. تتواثب الأصوات الخفيفة وتغوص الأصوات العميقة في الزوايا المعتمة.

«عزيزي لا تفهمني خطأ. أحيانًا أنت تبالغ في تحليلاتك، وتولي الكثير من الاهتمام لتعبيرات وجوه الناس، ولإيماءاتهم، ونبرات أصواتهم. هذا بالطبع يشهد على ذكائك، لكنك مستغرق إلى حد كبير في قراءة الناس. إلا أن أصوات وهيئة الناس لن تقدم لك سوى لمحة من العقل البشري، وبعد ذلك لن يتبقى لك سوى نفسك هائمة في متاهة النفس البشرية. هنا توقفت هي لحظة مستمتعة بمذاق ترقبي ثم أضافت: الشيء الحقيقي الذي من شأنه أن يعرفك أي نوع من الأشخاص يقف أمامك هو الأيدي».

أخذتُ -ما إن انتهت من قولها- أختلس النظر إلى قبضتيها الدقيقتين الممسكتين بقوة بعجلة القيادة. كانت بشرتها تلمع تقريبًا كالجرانيت وتعكس بالتناوب خطوط العتمة والبقع الصفراء الصادرة من أعمدة النور في الشوارع. أخذتُ أتأمل بتمعّن أصابعها الطويلة النحيفة بأظافرها المصبوغة بالأحمر. لم أستطع العثور على تجعيدة واحدة صغيرة ربما بسبب الظلام الحالك.

«هل سمعتَ عن قراءة الكف؟». لم تحد بعينيها عن

مراقبة الطريق، ولم تكن لديّ فرصة حتى للرد على سؤالها، إذ واصلت تقول «هل تثق في قراءة الكف؟ استكشاف مصير وحظ الإنسان في الحياة من بضعة خطوط على كف؟ إنه أمر بائس. لديّ نظرية أخرى أفضل لكن لا علاقة لها بخطوط الكف والنجوم ومستقبل الناس.

لزمتْ الصمت مرة أخرى. ثم قالت بصوت منفعل كصوت خبير متخصص يوشك على عرض مشروعه على جمهور: «قد لا تبدو المسألة صعبة لكنها بحاجة إلى وقت لمراكمة المهارة. باختصار فإن كل ما تحتاج إلى معرفته هو الاهتمام دائمًا بثلاث علامات للأيادي، شكل اليد والأصابع والأظافر. وعلى هذا الأساس يمكنك أن تحدد إلى أي فئة ينتمي الناس بحسب منشأهم ومهنتهم وشخصياتهم. بالطبع أنت تفترض الآن أن هناك أنواعًا عديدة من الأيدي. ولكي تكون لديك فكرة تقريبية سأحدثك عن الأنواع الأكثر انتشارًا من الأيدي. على سبيل المثال هناك يد جميلة مخروطية الشكل بأصابع مدببة. المحظوظون من أصحاب هذه الأيادي هم عادة من الفنانين أو من أناس يتوقون إلى الجمال».

العالم الغارق في الظلمة يتبدل بسرعة أمام زجاج السيارة مطموسًا في العتمة. المباني. الناس. واصلتْ هي كلماتها الجارحة من شدة دقتها: «وهناك ما يسمى اليد البسيطة. من غير المبهج النظر إليها. الكف عريضة.

أصابع سميكة وقصيرة. هذا النوع ستجده أساسًا بين الناس من الطبقة العاملة، حيث النشاط الذهني منخفض، والميل إلى الغضب والعنف، وانعدام الخيال، بكلمة واحدة: الناس الخشنة».

فجأة أخذت الكلمات تفقد شكلها وتصبح خطوطًا وألوانًا وصورًا. الآن أستطيع أن أرى بوضوح القسوة المربّعة البنية، والغضب الأحمر الدموي في شكل كرة. ضبطتُ نفسي وأنا أتفحّص يدي. أصابع يدي التي تفتقر إلى الطول فجأة اكتسبت اللون النبيذي.

كانت سيارتنا تندفع في شوارع المدينة المزدحمة، والسرعة والغبار والصور المتناقضة تضغط على رأسي. لم أستطع التفكير في أي شيء ما عدا تلك الفكرة المحيّرة التي تقيس العالم بالأيادي. وقعت عيناي المشوشتان على رجل واقف على الرصيف، ينيره من اليمين ضوء برتقالي خافت. لم يكن ممكنًا أن أميّز طول أصابعه أو عرض كفيه، فقد مرّت السيارة بالقرب منه في ثانية واحدة. كل ما تبقى من ذلك الرجل هو صورة يده الممتدة، قابضة على حفنة من ورق الإعلانات أو الاحتجاجات لتوزيعها.

هذه الليلة. هذا الجو الخانق. كلماتها ويد الرجل التي ترتجف قليلاً من الإنهاك، كل ذلك أمسى مثل حمم ذائبة تكتسح كل ما أمامها بما في ذلك وجودي ذاته.

*****

نرجيلة

على جانبي أحد الشوارع الضيقة المزدحمة تراصت المحلات على مسافة من الطريق. الواجهات الزجاجية الكبيرة للمحلات الأكثر فخامة كانت باعتزاز تعكس أشعة الشمس، أما تلك التي من دون أبواب وفاترينات، فكانت بتواضع، لكن بجرأة، تفرش بضاعتها على الرصيف. هنا يمكن العثور على كل شيء: الخبز الهلالي الساخن بالزبد. الفطائر. المعدات والأجهزة الصينية التي تباع بعلامات تجارية أوروبية. العصائر الطازجة بكل أنواعها. كافيه صغير انتزع لنفسه مساحة بين أجزخانة ومحل بقالة، وضع -تقريبًا في الطريق- ملء ذراعين مناضد مستديرة وكراسي مجدولة. من كل ناحية كان يهف على المناضد دخان تبغ النراجيل، أبيض، ممتزج بعطر الفواكه، طافيًا فوق عادم السيارات.

كانت أشعة الشمس تتكسر على القنينات الزجاجية الصغيرة الملونة المزينة بزخارف رقيقة، فتلقي بظلال ملونة، بينما تطلق قطع الفحم المحترقة فوق صينية النرجيلة دفئًا محسوسًا بالكاد. تتصاعد قرقرة النرجيلة عبر الماء بصوت لطيف يدغدغ الآذان «بللوم.. بللوم». إلى المنضدة التي خلفنا جلس عدة أشخاص. كم تحديدًا؟ يصعب القول، لأن بعضهم كان يجلس قليلاً ثم ينصرف ويأتي آخرون. لكننا أنا وستيفاني وأحمد، لم نكن على عجلة من أمرنا منذ أن جلسنا هنا في الصباح الباكر. الآن.. برزت علبة سجائر من جيب أحدهم،

وتنقلت تدور بين الأيادي، وكانت في كل مرة تنقص سيجارة. مددت يدي والتقطت العلبة وناولتها فورًا للشخص التالي، وابتسمت ردًا على النظرة المندهشة. أومأت برأسي إلى النرجيلة وقلت: «لم أدخن السجائر قط، حتى في المدرسة عندما كان ذلك موضة. أما النرجيلة فبدأت أدخّنها عندما جئت إلى مصر. حينذاك طلب والدي من ابن أحد أصدقائه أن يريني القاهرة. هكذا أراني القاهرة!».

تدحرجت ضحكات هادئة. لم أقل إنه مع النرجيلة الأولى اندلع الحب الأول، والتفاهم، والشغف.

ومتأخرًا حل الألم والإحباط ونشيج الليل المكتوم بالوسادة لكي لا يسمعني أحد. أغلقت عينيّ أقلب في ذاكرتي صور الماضي. سحبت نفسًا من النرجيلة «بللوم.. بللوم». فقاعات الهواء تحتضن أطياف الماضي. لا أدري كيف أمحو اسم حبيبي من ذاكرتي. حاولت مهما حاولت فلم أستطع تذكّره. عدت إلى ما حولي ثانية. بدا لي أن الكافيه أعتم قليلاً. درت ببصري حول منضدتنا فلم أجد ستيفاني الشقراء. سألت «أين ستيفاني؟». تجهّم وجه أحمد وقال بدهشة «كيف أين؟ في كندا!". بالطبع. بالطبع في كندا! وأين لها أن تكون سوى هناك؟! لكن لم لا أذكر متى وكيف رحلت؟! راح الشارع يظلم بالتدريج وسرت فيه نسمة باردة. تلفحت بالشال الدافئ الثقيل. طلبنا نردًا وبدأنا نلعب، فهزمني أحمد في خمس دقائق لا أكثر.

قلت له:

- هل تعرف أن والدي ممتاز في لعب النرد؟ لا بد أن تلعب معه. كان ليوريك اللعبة على أصولها!

- ما بك؟

أحمد الذي يغلب عليه المرح عادة أخذ يحدق بي بنظرة ثابتة تلمع بالقلق.

- مالك؟ هل نسيت؟

- نسيت ماذا؟

صمت لحظة يقلب خاطرًا في رأسه ثم حسم أمره:

- والدك لم يعد موجودًا.

- كيف لم يعد موجودًا؟!

- توفي.

الكلمتان الصغيرتان غير القابلتين للتصديق تضخمتا ولم تدخلا رأسي.

- توفي؟! متى؟!

- العام قبل الماضي. أقيم له عزاء كبير. وأنتِ كنتِ في الصف الأول واقفة تصافحين كل من جاء. ما بك؟ ألا تذكرين حقًا؟

ضغطت بقوة على ليّ النرجيلة حتى أصبح لون يدي شاحبًا. سحبت نفسًا طويلاً من النرجيلة ونفثت الدخان في الهواء، فطوّق المنضدة والتف على خواطري السارحة. أحنيت رأسي أحدّق بالنقوش البارزة على بلاط الكافيه. عندما رفعت رأسي لأعلى واجهت فراغًا مطبقًا على المكان. لم أرَ أحمد. وجدتني وحدي. الليل

يخيّم على الشارع، والضوء في الكافيه أمسى خافتًا. شعرت بألم خفيف في يدي اليمنى، وانتبهت إلى أنني طوال الوقت كنت أقبض بشدة على ليّ النرجيلة. رحت أفرد أصابع يدي وأثنيها. ألقيت بلي النرجيلة على سطح المنضدة. أخذت أتأمل كفي. بدت كأنها شاخت في التجاعيد التي حفرتها. هل كان بإصبعي فيما مضى خاتم زواج؟

برز الجرسون أمامي. قال إن الكافيه يتأهب للإغلاق. طلبت فاتورة الحساب. تناولت الليّ من على المنضدة. سحبت النفس الأخير المتبقي وأنا أحاول أن أتذكر شيئًا ما. أجتهد لأسترجع معالم الراحلين وذكريات تائهة. ظهرت في قلب الدخان صور محددة ذائبة متحللة من الماضي، فسيفساء يصعب ترتيبها في لوحة واحدة. ولم أعد أعبأ بما كان أو متى كان. اشتعلت قطع الفحم المتبقية حتى النهاية وخلّفت رمادًا فضيًا بينما راحت فقاقيع الهواء تنشد غنوتها "قرقر.. قرقر". ثم أصبح كل شيء حولي أكثر هدوءًا، فأكثر هدوءًا.

*****

جيتار أسود صغير

«إلى مو، وإلي ليز.. ستبقيان في قلبي إلى الأبد».
آنا

هل تستطيع أن تتخيل شعورك وأنت ترحل من مكان بلا عودة؟ هل جربت أن تترك كل شيء وأن تبدأ حياة جديدة عليك تمامًا؟ إن كنت عشت هذه التجربة، فهل تتذكر ذلك الخليط من الإثارة والرعب، ومذاق الحزن الذي يشبه لسعة النبيذ الأحمر لطرف اللسان؟

محاولتي الأولى للرحيل استغرقت مني شهرين. حينذاك كنت في السابعة عشرة، وأوراقي غير مستوفاة، وليس لديّ إذن من والديّ بمغادرة البلاد. علاوة على ذلك كان معي حقيبتان كبيرتان محشوتان إلى حد الانفجار بالملابس، وثلاثة صناديق ممتلئة بالكتب، كنت أحدس أنني لن أفتح أيًّا منها فيما بعد.

عانيت الكثير لأنقل جبل كتبي وملابسي إلى المطار، والكثير من الحرج أيضًا في سبيل ذلك، وانتهى كل هذا عند وقوفي أمام مكتب جوازات السفر ومنعي من الرحيل. أمضيت أيامًا عديدة غائمة وكئيبة، أحاول أن أتجاوز خيبة الأمل. واحتجت إلى شهرين كاملين ألصق فيهما فتات كبريائي، وأحاول استعادة القوة والطاقة اللازمتين لمحاولة جديدة قانونية للرحيل.

المرة الثانية صمّمت ثانية أن آخذ معي الستين

الكليوجرام من متعلقاتي العزيزة. بالطبع اضطررت إلى دفع رسوم عن الوزن الزائد، تعدت قيمتها قيمة كل ما كان معي من كنوز!

كنت في السابعة عشرة، راحلة نهائيًا وللمرة الأولى إلى بلد آخر. بعد ذلك أمضيت سنوات أكافح لغة غريبة، غير قادرة على التأقلم مع واقع مختلف، حتى انتهى بي الأمر بقبوله. خلال كفاحي انخفض وزني، ثم ازداد، ولم تعد الملابس (التي حملتها معي سبعة آلاف كيلومتر) مقاسي. وزعت بعضها خصوصًا حين وجدت أن رائحة الوطن الذي جئت منه تبددت منها، فلم يعد لها معنى. بالطبع لم أفتح أي كتاب من تلك التي رحلت بها، لكني واظبت على إزالة الأتربة عنها كل أسبوعين، وعلى تأمل أبجدية لغتي الأم على أغلفتها، وإطلاق التنهدات مستعيدة ذكريات الماضي.

ثم جاء يوم لم أكن أنا التي ترحل، وإنما أنا من ستبقى، بينما كان أحد أغلى أصدقائي على وشك أن يبدأ حياة، أو ربما يواصل حياته لكن في بلد آخر. كان يستعد للرحيل نهائيًا. صممت مع أصدقاء آخرين أن أكون في وداعه. أمضينا الليلة الأخيرة عنده لنستمتع حتى آخر دقيقة بموسيقى ضحكاته وابتسامة عينيه. انقضى الليل في غمضة عين. أشرق صباح مشمس دافئ لا يتناسب مع شعورنا بالأسى.

كنت أحس بشيء من القلق لأنه لم يبق أمامنا سوى ساعات، ولم نكن قد رتبنا له حقائبه بعد. وباعتباري

شخصًا مسؤولاً ظللت ألحّ عليه «احزم حقائبك.. الوقت ضيق.. بالله عليك ابدأ توضيب حقيبتك». في كل مرة كنت ألح عليه كان يبتسم بهدوء كأنما ليس هو من سيرحل بعد قليل. حين لم يبق سوى ساعة واحدة على الرحيل استجاب لتوسلاتي المتكررة وبدأ يعد حقيبته.

كانت حقيبته أشبه بالحقائب التي يعلقونها على ظهورهم، وليس حقيبة سفر كبيرة كما تصورت. تخلى عن تليفونه المحمول الجديد. استغنى عن جيتاره الجديد الثمين. أهدى إلينا معظم كتبه، مستبقيًا القليل العزيز جدًا عليه. ترك معظم ملابسه ولم يأخذ سوى سترة قديمة مدفئة وقبعة منقوشة كانت شقيقته قد أهدتها له. وشيئًا فشيئًا أخذت حقيبته الصغيرة تمتلئ بأشياء لا تخطر على بال. دفاتر ملاحظات. رسوم. طباشير ملون. أداة صغيرة لرصد النجوم. وحينما لم يعد ثمة مكان في الحقيبة أخرج من خزانة ملابسه جيتارًا أسود صغير وقال بفخر: «المكسيكي. آخذه معي أينما ذهبت».

تأملت الجيتار وسطحه البراق يلمع تحت أشعة الشمس كأنه يغمز لصاحبه بعرفان. استعدت وجه صديقي وهو يجادلنا في الفلسفة والدين، وهو ينصت باهتمام لمقطوعة موسيقية جديدة، أو حين كان يرسم مخلوقات خرافية بطباشير ملون.

الشيء الثاني الذي أخرجه صديقي من خزانة ملابسه كان أحد الأقراص البلاستيكية التي تقذفها وتعود إليك

«فريسبي». كان قرصًا أصفر فاقع اللون كامل الاستدارة ومألوفًا لي. اتسعت عيناي من الدهشة. لم أنطق بحرف. فكرت لم لا!

حين أقلعت الطائرة كنت وأنا في طريق العودة -بدون أن تجف دموعي- سعيدة من أجله، وآملة لنفسي أنه سيأتي يوم سأرحل فيه أنا أيضًا. تذكرت القرص الأصفر. ورأيت صديقي الغالي في الأسبوع التالي يلهو به، لكن في حديقة كبيرة منسّقة يمتد فيها العشب الأخضر المشذّب وتترامى على جانبيها أرائك أنيقة. يجلس على واحدة منها وبيده جيتاره ويضحك.

هل يمكن أن تتخيل شعورك وأنت ترحل من مكان ما بلا عودة؟ نعم. أنا لم أتخيل ذلك الشعور، بل رأيته بوضوح، كان يشبه جيتارًا أسود صغير بسطح براق يلمع تحت أشعة الشمس.

*****

أحمد الخميسي

قطعة ليل

واصل الثلاثة سيرهم منهكين على طريق يعلو ويهبط ويلتوي كالثعبان.

الشمس في قلب السماء كالحريق، والقمر مثبت في الجهة الأخرى، أبيض، بلا ضوء.

في اليوم الأول كانوا جماعة كبيرة من نحو خمسين شخصًا، ثم تساقط أفرادها من التعب واليأس واحدًا بعد الآخر على جانبي الطريق. في اليوم الثالث تهاوى رجل وأمه، في اليوم الخامس حطت أسرة بأطفالها تحت شجرة، ثم شابان عاشقان، ثم ذلك الرجل الذي قال إنه لا يرى جدوى من هذا البحث، ولكنه ينضم إليهم من باب الفضول. وبعد ذلك لم تعد لدى أحد رغبة أو جهد لمراقبة الذين ينسلون بهدوء.

كان الثلاثة يجرجرون خطواتهم، والغبار يتصاعد حول أقدامهم، والعرق يسيل من أعناقهم إلى ظهورهم. من وقت إلى آخر كان أحدهم يتطلع إلى جانبي الطريق المقفر بحثًا عن ظل شجرة، أو إلى السماء، ربما تعبر سحابة مثقلة بالماء، أو يرهف السمع إلى خرير مياه في نهر بعيد متخيل.

قال البدين الذي احمرَّت عيناه وهو يدفع جسده إلى الأمام:

- لو أنها أمطرت على الأقل!

ولم تكن لدى الاثنين الآخرين، النحيف والقصير، قدرة على النطق بشيء. في اليومين الأخيرين كانت الكلمات

تخرج من الفم كأنها أحجار ثقيلة ساخنة وملتهبة.

ابتلع القصير ريقه يرطّب به حلقه:

- قيل لنا إن قطعة الليل مسدلة خلف الجبل، وها نحن قد تركنا الجبل منذ أيام، ثم جبل، وآخر، والآن نمشي فلا نصادف سوى سلاحف تطل بأعناقها من جحورها، وشجيرات صبار، وضوء متدفق من كل ناحية. ما من شيء، تلاشى حتى نباح الكلاب الضالة الذي رافقنا الأيام الأولى.

قال النحيف:

- لو كان الليل في مكان قريب لشاهدنا ولو ظلاً من عتمته يعبر السماء.

توقف البدين لاهثًا، ثم ارتمى على الطريق جالسًا وهو يغطي رأسه بيديه الضخمتين.

توقف الاثنان الآخران أيضًا.

نظر البدين إلى ساعة يده وقال بصوت مذبوح:

- الثالثة فجرًا، والضوء ساطع كالجحيم، حتى ذرات التراب مضاءة متوهجة.

ألقى النحيف بنفسه إلى جوار البدين متسائلاً:

- ألا يجدر بنا أن نفكر في الرجوع؟

أجابه القصير:

- نرجع؟! ألا يحتمل أن نكون قاب قوسين من الليل؟!

زفر البدين:

- نعود إلى حياتنا دون شيء؟

تبرّم القصير:

- الضوء أربع وعشرون ساعة يبعث على الجنون.

تعجب النحيف:

- يحدّق الجميع في أعين بعضهم بعض صراحةً، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئًا، لم يعد هناك مكان لشائعة، أو مال متدفق، أو خطة تُدبّر.

أوضح البدين:

- لا بد أن قطعة الليل مرمية في مكان ما. كيف يمكن للحياة أن تستمر هكذا؟!

علق القصير:

- جفت حلوقنا، ونفدت قوانا.

قال النحيف:

- ما زال القمر يقف قبالة الشمس أبيض بلا ضوء.

تناول كل منهم جرعة ماء، ومسحوا جباههم بقطرات منه، ثم استأنفوا السير.

زحف البدين إلى الأمام والعرق يغطي عينيه، والملح يحرق جلده متطلعًا إلى نهاية الطريق. وكان النحيف يرسل بصره إلى السماء بحثًا عن طير يضرب الجو بجناحيه، أما القصير فراح يدفع أنفه إلى الهواء لعله يتنشق شيئًا غير رائحة الدخان والحريق.

سحابة رمادية ركضت مسرعة في السماء. أشار النحيف إليها صائحًا بلهفة:

- انظرا!

تطلع الاثنان الآخران إلى السماء.

هتف النحيف وركبتاه تصطكان من التعب:

- لعلها الظلمة قريبة منا في مكان ما.

اضطربت عينا البدين المحمرتين بهوس وغمغم:

- لا بد أنها وراء هذه الرابية.

غذ ثلاثتهم السير، وانحرف الطريق بهم يمينًا، ثم ارتفع إلى أعلى، وظهرت رابية عالية، توقف عندها الثلاثة يلتقطون أنفاسهم. وضع الطويل حافة يده فوق عينيه:

- لا أرى شيئًا.

- ألم نقترب قليلاً؟

- ربما. لكن لا يبين شيء من هنا ولا يُسمع صوت.

- دقق النظر!

- لا شيء. بحر من الضوء!

مكثوا فوق الرابية يفتشون في الأفق عن خيط من ظلمة.

تقدم البدين باقتراحه:

- نستريح اليوم ونواصل السير غدًا؟

- كلا.

- فلنمضِ.

واصلوا سيرهم منهكين من الضوء.

*****

كناري

وسط ستة مليارات إنسان، وملايين الجبال والبحور، وكل الكواكب والنجوم، لديّ فقط، كل ما لديّ، عصفورة واحدة صغيرة، أقول لها قبل نومي:

- «تصبحين على خير يا كناري الصغيرة". تقف على راحة يدي، لا أضغط عليها بقوة، وخشية أن تبعد عني لا أبعد أصابعي عنها. أكلمها بصوتي الأجش فتقول:

- يا عندليب. ارقد تحت الأشجار،

فتقول:

- سبعي يرتاح. أستحم في النهر فتطير فوقي تضرب الهواء بجناحيها: تمساحي في النهر. هذه العصفورة هي كل ما لديّ. أتحمل نزقها، وحماقاتها، وأصبر على تلفّتها الكثير برأسها، وأتفهّم نظرة عينيها التي تبدو مطمئنة راسخة ثم تحترق في لحظة بعذاب خوف مفاجئ.

حطّت على كتفي مطلع اليوم. رفعت رأسها نحو السماء بكبرياء. قالت بنبرة لا تقبل النقاش:

- الجو اليوم صحو. وأضافت آمرة ولم تنظر إليّ: دعنا نطير قليلاً. أحاول أنا الذي اعتدت تقلّباتها أن أوضح لها:

- أنا بَشرِيٌّ يا كناري، وزني ثقيل، ولا أطير.

تمسح الأفق الذي ستحلق فيه بنظرتها، وترد برأس مرفوع:

- أوقف سخافاتك هذه.

ينخفض صوتي:

- افهميني، أنا لا أقدر. مرّت على السماء بنظرة أخيرة متفحصة، ولا أظنها حتى سمعتني، وقالت:

- هيا. هيا!

قبضت بمخالبها الدقيقة على ياقة قميصي لترفعني، اغتاظت من ثِقلي وضخامتي، ومع ذلك ارتفعتْ بي للأعالي. شهقتُ من الخوف وأنا معلّق بشعرة في الهواء. قامتْ بدورة كاملة في السماء، زقزقتْ، دخلتْ سحابة بيضاء وخرجت منها لأخرى وعلى ريشها وجبيني ندى. تعبتْ، ففردت جناحيها وانزلقت من السماء للأرض ببطء. حطت حيث أقف وظلي خلفي. نفضت الندى عن جناحيها وأطلقت صوتها الرنان نحوي:

- ألم أقل لك إن بوسعك أن تطير؟!

تطمئن إلى وقفتها على الأرض فتستعيد نبرتها الآمرة:

- سنطير كل يوم ما دمت قد أحببت ذلك. ربما غدًا.

وقفتُ على رأسي ونكشتُ شعري متطلعة حولها، ثم، وكأنما اتخذت قرارًا حكيمًا بعد تفكير، قالت بثقة:

- الآن سر بنا. تميل برأسها على جنب وتتذكر: إلى اليمين.

أمشي بها، أدوس على الأعشاب، وأجتاز الأنهار، وهي سارحة بعظَمَة في ذكرياتها وأحلامها. وفجأة، صاحت:

- انحرِف يسارًا الآن. تصرخ دون سبب: قلت لك يسارًا! مضيت بها بهدوء بين أوراق الأشجار العالية. قابلتنا بحيرة صغيرة، ثم لاح جبل مرتفع، فرفرفت كأنها كانت تبحث عن الجبل من زمن وصاحت:

- الجبل! ألم أقل لك؟! غمغت: لكنك يا كناري لم تنطقي بحرف عن أي جبل! دارت أمام وجهي حانقة تضربني بمنقارها: بل قلت لكِ يسارًا لأن هناك جبلاً! عادت تنقل قدميها فوق كتفي وصاحت:

- الآن اصعد الجبل! نصعد. عند القمة وقفتُ أستريح، وملأت هي صدرها الصغير جدًا بالهواء النقي البارد. وقالت:

- يكفي هذا. تعبنا. وهبطت بعينيها إلى الغابات عند سفح الجبل، وهتفت بعظمة: القِ بنفسك إلى تحت. هيا. أريد دليلاً أنك تحترمني. قلت لها:

- سنموت يا كناري. ستتحطم ضلوعي على الصخور ولا يبقى مني شيء.

دارت حولي باهتياج وعصبية:

- أنت جبان. رعديد. لن نموت. وحتى إذا متنا سيبقى على الأرض حطام الحب وينمو من جديد. تضربني بجناحيها على ظهري تدفعني بمنقارها إلى حافة الجبل وتصيح:

- يا جبان! أنظر إلى الفراغ الهائل الذي يفصلني عن الأرض، وألقي بنفسي من أعلى الجبل وهي خلفي. وما أن يحيط بي الهواء حتى أسمع صرخة مذعورة نحيفة:

- يا ماما!

ألتقطها بكفي، وأواصل الهبوط إلى السفح، ولا أموت. تملّصت من كفي ووقفت على الأرض، نفضَتْ الفزع عن ريش جناحيها واستردت كبرياءها، ثم قالت بابتسامة

صغيرة:

- ألم أقل لك؟ لن تموت. أنا أعلم. قالت ذلك وأنا أنصت لدقات قلبها المتسارعة وهي تهدأ.

حلّ الغروب حولنا. وسرقني النوم. بسطتُ لها كتفي، فسألتني وهي تعلم الجواب:

- ستنام؟

قلت:

- نعم؛ تصبحين على خير. تنام هي الأخرى واقفة ترتجف، لكنها كأي كناريا لا تنام طويلاً، تستيقظ بعد قليل، وتضم رأسي الضخم إلى صدرها، وتغنّي لي:

- نَمْ يا صغيري. لا تخف. لا شيء ولا أحد في الغابة يجرؤ على تهديدك. إنها الآن تحرسني وتحميني. أتظاهر بالنعاس. ويدخل الليل العميق وهي واقفة بداخله كالنور. أختلس نظرة عليها، فتنهرني بكبرياء:

- نم. لا تخف. ويندى كل شيء في داخلي بالحنان مثل بستان في الفجر، حين أفكر أنه ليس لدى هذه العصفورة سواي وحدي.

*****

بط أبيض صغير

من قبل كنت أتابع كل شيء، ثم توقفت عن متابعة أي شيء. توقفت منذ شهور طويلة عن شراء الصحف، جميع الصحف. لم أعد أفتح التليفزيون. توقفت عن توقيع بيانات الاحتجاج السياسي، توقفت عن الكلام فيما يحدث حولنا. صرت أسقط أخبار الأحداث المهمة من أفواه معارفي خلال المكالمات الهاتفية، أو اللقاءات التي تحدث بالمصادفة في شوارع المدينة. القصف اليومي لمدن فلسطين أحالها إلى شجرة عيد ميلاد تزينها بيوت صغيرة تتوهج نوافذها بالموت، وجعلني أقول لنفسي: لا شيء يتغير إلى الأحسن. أحيانًا نادرة كان الأمل يتواثب وينقر شباكي، فأهمس لروحي أنني مخطئ، ولا بد أن ثمة ما يتحرك نحو الأحسن، لكن ما أن يبدأ القصف من جديد حتى يفر الأمل بجناحيه الرقيقين مذعورًا من الدوي والدخان الأسود. يومًا بعد يوم توقفت عن متابعة أي شيء، لكنني بحكم العادة المتأصّلة كنت أفتح التليفزيون من وقت إلى آخر أكتفي بمشاهدة مقدمة نشرة الأخبار التي تستغرق نصف دقيقة، أشاهدها بروح عدائية مثل شخص يدافع عن نفسه ضد الأنباء السيئة، وخلال نصف الدقيقة تلك تتدفق نعوش الأطفال الفلسطينيين إلى الشاشة، مثل ماء رُفعت عنه السدود مرة واحدة، من شاشة التليفزيون إلى المنضدة وإلى أرض الصالة في بيتي، نعوش صغيرة، تهرول نحوي مرفوعة على أكتاف

ورؤوس الآباء المحنية وتختبئ تحت الأرائك والمقاعد، قبل أن تشن عليها غارة أخرى. أغلق التليفزيون بسرعة وأندم أنني فتحته. لكن أكوام الأطفال التي تسربت من الشاشة تكون قد شغلت كل فراغ في شقتي. يتطلعون إليّ ببراءة وعتاب، برجاء أن أغفر لهم أنهم احتموا بمنزلي من غير استئذان، وشغلوا كل مساحة شاغرة بين قطع الأثاث في الصالة وفي الردهة الممتدة نحو الحمام والمطبخ وفي غرفتيّ النوم والمكتب. أقف مكاني مرتبكًا، لا أدري ماذا بوسعي عمله. يطمئن الأطفال في قمصانهم الحمراء قليلاً، ويستريحون من الجحيم، يألفون المكان، ولا يغادرون شقتي، لأن الدنيا في الخارج مرعبة. أنهض من مقعدي لأمضي إلى حجرة النوم فيتحركون في أعقابي مثل سرب من البط الأبيض، يتعثرون ما بين قدمي برؤوس مشجوجة، فوق كل رأس منها شريط معقود من قماش أبيض يربط الفك السفلي لكي لا يتدلى ساقطًا في الهواء.

صفوف من البط الأبيض الصغير تسكن معي منذ شهور طويلة، وتتبعني كأنما تخشى أن تفقدني، تتنقّل ورائي من حجرة إلى أخرى، تُسارِع بالتكدس حول قدمي في المطبخ، وحين أهم بمغادرة المسكن يقف البط الأبيض الصغير عند باب الشقة صفوفًا، يمط رقابه النحيلة الطويلة لأعلى، يتفحصني بصمت، ينحرف برأسه قليلاً، ومنقاره السفلي مربوط بقطعة القماش إلى رأسه، يتطلع إليّ، لا يدري إن كنت سأعود إليه أم أنني

سأتخلى عنه.

أرجع في المساء، وقبل أن أفتح باب الشقة أسمع صوت اصطفاق الأجنحة وراء الباب، أفتح وأدخل بين خفق أجنحة البط الأبيض، وفي جو الصالة يضطرب الصياح، وتسبح عيون مغلقة، وكراسات، وأقلام، وصنادل صغيرة. أخطو بين الصفوف البيضاء محاذرًا نحو حجرة المكتب، والصفوف تتدافع ورائي، أتوقف أمام مدخل الحجرة، وألوح لها بيدي لكي ترجع، أريد أن أصيح فيها، لكنها تظل واقفة، صامتة، لا تحيد بعيونها عن وجهي وكتفي وصدري.

في الليل يملأ البط الأبيض كل موضع في حجرة نومي، ينعس على صوان الملابس، وأعمدة الستارة، وحافة النافذة، وأطراف سريري، فإذا حركت ذراعي أو تقلّبت على جنبي ارتطمت به، أنظر إليه، فيحدّق في بصمت ورهبة وأمل.

منذ زمن يلازمني شعور مضنٍ أن عليّ أن أعيد تلك الكائنات البيضاء الصامتة إلى هيئتها الأولى، إلى بشراتها الغضّة، وأمهاتها، ووقفاتها أمام فاترينات محلات الألعاب. أقول لنفسي علّي بكل ما أوتيت من قوة أن أفك السحر الذي ربطها في صورتها هذه. ولم أكن أدري ما العمل. أتجه كل يوم إلى عملي في مكتب البريد، أملأ استمارات التحويلات المالية من مدينة إلى أخرى، وأسمع الناس يخاطبونني كأن أصواتهم قادمة من تحت الماء، ودوي القنابل يطغى على كل شيء.

لكنني أسدّ أذني وقلبي بإحكام لكي لا أرتكب غلطة في عملي، وأستمر في توقيع الأوراق، وفي الظهيرة أغادر المكتب وأتجوّل في الشوارع القريبة قبل أن أتجه إلى منزلي. أعود، أفتح الباب، وأنا أعلم مقدمًا ما ينتظرني. الأجنحة البيضاء التي تضرب في الهواء، والريش الخفيف المتطاير في الجو، وتلك النظرات، والمناقير المربوطة بقطع القماش. يواتيني شعور أنني لم أكن في العمل، لكنني كنت أفر من كل هذا، مثل جندي تسلل من موقعه في تل مشتعل إلى غابات بعيدة. يعزيني البعض بأن الحياة مهما كان لا تتوقف. لكن لماذا أحس بهذه المرارة وأنا في عملي؟ أو حين ألتقي بالأصدقاء القلائل؟ أو عندما أشرب كوب ماء وأجد صفوف البط الأبيض تتطلع إليّ بنظرة مبهمة؟ أحدّق فيها هاتفًا: وهل أنا المذنب؟ هل أنا الذي يلقي بالقنابل على الأطفال؟!

منذ زمن طويل توقفت عن متابعة كل ما يحدث. كل ما يشغلني الآن هو صفوف البط الأبيض التي تواصل نموها في مسكني، وتتخبط حولي، وتمنعني من التنفس أو تناول الطعام براحتي. الآن وقد حل منتصف الليل نهضت وربطت فكي السفلي بأعلى رأسي بقطعة قماش أبيض، ووقفت متجمدًا بين الصفوف البيضاء، ورفعت في الضوء الباهت رقبتي النحيلة لأعلى، ومشيت معها في الحجرات الفارغة، أحجل بصمت، على أمل أن تدق الباب علينا يد بشرية.

*****

باب مغلق

في شقة صغيرة بالطابق الأول من عمارة في حي الظاهر سكن الأستاذ موريس، المحاسب في أحد البنوك، مع زوجته مدام جانيت التي تعمل في مدرسة تعليم لغات أجنبية. الاثنان تجاوزا سن الإنجاب دون أن ينجبا، لكنهما قانعان بحياتهما التي تمضي في هدوء وتتخللها نزهات وزيارات يوم الإجازة. في العمارة محمود البواب الذي جاء من أسوان منذ زمن، وعاش أسفل السلالم وحده مع ابنته الصغيرة هدى، التي كانت تشتري للسكان وخاصة لمدام جانيت الحاجات من المحلات الواقعة أمام العمارة. موريس وجانيت، المحرومان من الأولاد، أحسّا بميل وبعطف على البنت الصغيرة، التي لم تكن تطلب شيئًا حين تعود إليهما من المحل وتكتفي بابتسامة واهنة، سعيدة بكل ما يُعطى لها، سواء أكان ورقة نقدية أم نصف رغيف خبز بداخله قطعة لحم. في أوقات المغرب كان يحدث أن تأتي هدى بشاي أو خبز للأستاذ موريس، وتكون الشقة خالية من الضيوف، فتقول لها مدام جانيت:

- اقعدي يا هدى استريحي وإنتي طالعة نازلة طول النهار. تجلس هدى على حافة الفوتيه، كأنها تخشى أن تجلس عليه كله، تبحلق في التليفزيون بصمت، فإذا قدمت لها مدام جانيت قطعة كيك صغيرة قضمت منها من دون أن ترفع بصرها عن الشاشة. تظل جالسة هكذا إلى أن تسمع صوت والدها ينادي عليها لأن أحد السكان

في الطابق الثالث أو الرابع يطلب شيئًا من المحلات، حينئذ تثب، وتهرول، وتغمغم من عند الباب وهي تنصرف بكلمات شكر غير مفهومة. تغادر هدى الشقة فينسلّ لون ما من الجو، ويحل شعور خفيف بالوحدة والأسف في الصالة، وعلى كسوة المقاعد، ويتفادى موريس وجانيت أن تتقاطع نظراتهما، إلى أن ينطق هو ورأسه فوق الجريدة بعبارة ما، ليس لها معنى خاص، وتؤكد هي كلماته وعيناها سارحتان: طبعًا. طبعًا. تنهض واقفة:

- أعملك شاي؟

وينظر كل منهما إلى الآخر، وينقل بنظرته مشاعر مختلطة من ذنب وغفران وعرفان، لأنهما ما زالا معًا، ولأن أيًا منهما لم يقل للآخر أبدًا إن الحياة موحشة.

في يوم آخر تطرق هدى الباب، وتجلس على حافة الفوتيه أمام التليفزيون تتفرج بفيلم كوميدي قديم، تأكل مما يقدم لها، وفي تلك الأثناء تقيس عليها مدام جانيت فستانًا قديمًا ضاق على نجوى بنت أختها، وتفرح هدى، وتنهض بعد ذلك وتساعد مدام جانيت في غسل الصحون، ثم تنام على الكنبة في الصالة حتى الصباح. أبوها لم يجد مشكلة في مبيتها المتكرر، فشقة موريس وجانيت قريبة منه في الطابق الأول بجوار السلم، والأستاذ موريس رجل طيب وكبير في السن.

كل يوم أربعاء يتجه أبو هدى إلى مستشفى قصر العيني لغسل كليته، ويعود منهكًا أصفر الوجه يرقد على

فرشته وهدى تناوله الماء والخبز، هكذا رجع هذه المرة، لكنه بعد أن رقد ساعتين يئن تحت السلم فارق الحياة. وانتبه سكان العمارة فجأة إلى أنهم لا يعرفون لمحمود البواب عنوانًا ولا أقارب، ولم يكن يشير لأصله سوى أبناء بلدته العابرين، الذين كانوا يظهرون بحثًا عن عمل، فيشربون معه كوب شاي على الدكة أمام مدخل العمارة ويستمعون لنصائحه ثم يرحلون. الحاج شفيق قام بجمع تبرعات من سكان العمارة وتولى مع الأستاذ موريس إجراءات الدفن. في المغرب ظلت هدى واقفة تمسك قبضتاها الصغيرتان بالسور الحديدي لسلم العمارة، رأسها مدلى تنظر إلى الفرشة التي كان ينام عليها أبوها تحت وتبكي. تواسيها مدام جانيت وتجذبها لتدخل الشقة، ثم تيأس منها فتتركها وتعود إليها بعد ساعة، إلى أن وجدتها نائمة تقريبًا وقد أسندت خدها إلى حديد السور، فسحبتها من يدها إلى الداخل. بقيت هدى في الشقة، وموريس وجانيت يطيّبان خاطرها كل يوم بالكلمات وقطع الحلوى حتى كفت عن البكاء، وبدأت تختلس النظر إلى لقطات من أفلام التليفزيون وهي تمسح أنفها بكمها. وحين صارت إقامة هدى عند الأستاذ موريس أمرًا مُسلّما به، اشترت لها مدام جانيت من ممر الراعي الصالح فستانًا وحذاء جديدين، وبدأت تخرج معها وتمسك بيدها بحرص وهما تعبران الشارع، وبعد مدة أخذت جانيت تفكر في وضع سرير لها في الحجرة الصغيرة، وحين مضى على وجودها شهر كامل

قالت جانيت لموريس بحنان:

- إيه رأيك لو أدخلنا هدى مدرسة قريبة؟

مساء ذلك اليوم عرّج موريس على صيدلية بركات المجاورة ليشتري علبة أنسولين، فغمزه د. مصطفى الصيدلي وهو يفتش عن الدواء بسؤال عابر:

- أخبار البنت هدى إيه يا أستاذ موريس؟ مش الحمد لله بخير؟ لم يتوقف موريس عند السؤال طويلاً، وأجاب: الحمد لله. ماشي الحال. وبعد يومين وجّه الحاج عصفور صاحب محل العطارة السؤال ذاته إلى موريس، لكن بنظرة ثقيلة باردة جعلت موريس يتساءل: إيه الحكاية؟ شخص ما في الشارع نكش موضوع هدى قائلاً:

- «موريس أخد البنت الصغيرة في بيته وهيخليها نصرانية، هيربيها على طريقتهم!»، وتواثب الكلام من محل المكوجي إلى صاحب المخبز، ومن دكان العصير إلى المقهى، ومن بائعة اللبن إلى داخل البيوت. في نهاية الأسبوع سدد الجزار وهو يقطع فخذًا بالساطور نظرة عداوة إلى موريس، وطرح عليه السؤال بنبرة أقرب إلى المساءلة منها إلى التساؤل. هذه المرة أدرك موريس المقصود بالكلام، فبهت وتلجلج قائلاً:

- الحمد لله. وأسرع منصرفًا.

في اليوم التالي قرر موريس أن يستشير لطفي صديقه وزميله في البنك، فنصحه على الفور بطرد البنت قائلاً:

- بقاؤها عندك ممكن يعملك مشكلة في الشارع والمنطقة كلها.

جزع موريس:

- أطردها إزاي؟ دي طفلة؟ وملهاش حد؟

فرد عليه لطفي:

- سرّحها، شوفلها حد غيرك تقعد عنده.

بسط موريس كفيه بحيرة متألمًا:

- لكن البنت بتحبنا أنا وجانيت، ومستريحة معانا، كمان إحنا...

قاطعه لطفي بحزم:

- سيبك من حكاية الحب والراحة دي، المسألة أكبر من كده يا موريس.

في طريق عودته أحس موريس أن حجرًا ثقيلاً يهوي بقلبه، فرفع بصره إلى السماء الغائمة بنظرة عتاب ورجاء، وما أن دخل الشارع حتى شعر بالأعين تلاحقه في صمت، تترقب قراره، وتحثه عليه، وعندما اقترب من محل الجزار خرج له صبيه ودفعه في كتفه بشكل كأنه غير مقصود وتابع سيره.

جلس موريس في الصالة يسأل نفسه كيف يطرد طفلة صغيرة بلا أهل ولا سند؟ وماذا يقول لجانيت؟ وللبنت؟

في الأيام التالية أخذت كلمات الغمز واللمز من الشارع تصك أذنيه بقوة أشد، وتذكر كلام لطفي، فحكى لجانيت كل شيء. استمعت إليه جانيت واقفة بوجه

مخطوف باهت ولم تقل كلمة. جلست على حافة السرير وبكت طويلاً بصوت مكتوم، ثم نهضت وجففت دموعها بيدها واتجهت إلى المطبخ. نادى موريس هدى فأسرعت إليه:

- نعم يا عم موريس. ووقفت أمامه منتظرة.

مط موريس شفته السفلى، وشبك أصابع يديه ولم يجد ما يقوله للبنت الصامتة. أخيرًا استجمع موريس شجاعته وشرح لها بقدر ما يمكن لطفلة أن تفهم أن عليها أن تغادر الشقة. البنت الصغيرة في الفستان الأوسع والأطول مقاسًا عليها بكت، ومع أنها لم تظهر من قبل عنادًا أو تشبثًا بشيء، إلا أنها هزت رأسها هذه المرة «لأ». وأعاد موريس ما قاله بكلمات أخرى فاستغربته:

- هأمشي فين؟ أنا معرفش حد، ومدام جانيت قالتلي هرتبلك الأوضة الجوانية؟

وحسمًا للوضع هرولت هدى إلى جانيت في المطبخ:

- الحقي.. عم موريس بيقولي أمشي! وأشاحت جانيت بوجه متصلب كأنها لم تسمعها متشاغلة بدعك الأطباق بعصبية.

في اليوم الثاني، والثالث، والرابع، كرر موريس لهدى ما قاله من قبل، وأوضح لها أنه يحبها مثل ابنته بالضبط، بل هي ابنته. لكن هدى لم تعد تعير كلماته أي اهتمام، تسمع ما يقوله وتهز رأسها «لأ»، وتنصرف إلى الصالة تراجع ما علّمته إياها مدام جانيت من حروف

الكتابة أو تتفرج على التليفزيون. مرة وأخرى، ثم لم يجد موريس بُدًا من جذبها بقوة من ذراعها وجرجرتها خارج باب الشقة.

البنت خارج الشقة، ملتصقة بالباب المغلق، تخمشه كالقطة وتبكي:

- أنا زعلتك في حاجة؟ والنبي دخلني. دخلني والنبي يا عم موريس. تفر دموع موريس وراء الباب المغلق يقول:

- مقدرش يا بنتي.. والعدرا ما أقدر.

- والنبي، والعدرا، والنبي.

والباب مغلق وخلف كل ناحية شخص وحيد بحاجة للآخر.

*****

نظام جديد

كان الدكتور فخري الفيومي ينظر إلى من يحدّثه نظرة شك عميق، كمن يقلّب ببصره بضاعة مريبة، أحيانًا نادرة كان يجازف سائلاً بصوته المهذب الخفيض:

- حضرتك نظام جديد؟

فيجيبه الآخر بحيرة:

- نظام جديد؟! ماذا تعني؟

فينكّس الدكتور فخري عينيه على نظرة باسمة مريرة كمن يقول «دعك من هذا اللؤم» ويغمغم:

- النظام الحالي؟

في أغلب الحالات كان يتلقى ردًا واحدًا مصحوبًا بدهشة:

- ماذا تقصد؟ لا أفهم؟

فيزوم الدكتور فخري ويصمت طاويًا نفسه على حيرته، ويغير موضوع الحديث.

بدأت حكاية الشك هذه عندما فوجئ الدكتور فخري باستدعائه إلى المباحث العامة منذ نصف السنة، كان ذلك عقب اجتماع حاشد في الجامعة جرفته الحماسة خلاله، فقال كلمتين تجاوز بهما سقف المسموح. وندم بعد ذلك أشد الندم، وقالت له زوجته:

- يا فخري إنت أستاذ كبير عندك كتبك وأبحاثك، مالك ومال كلام الشباب؟!

فأجابها:

- عندك حق.

وفي اليوم المحدد لاستدعائه وصل إلى مبنى الداخلية في الموعد المعيّن، واستقبله ضابط شاب لبق قاده بترحاب إلى حجرة ضيقة ثم قال له بنبرة آسفة:

- يا دكتور.. آسف جدًا.. نحن مضطرون إلى اعتقالك!

تغيرت ملامح الدكتور فخري على الفور، فالاعتقال آخر شيء خطر له. كان أقصى ما توقعه أن يطرق معه عميد الجامعة موضوعًا عامًا ويدس في ثنايا حديثه عبارة لوم وتحذير، أما الاعتقال؟! مد ساقيه وجال بعينيه في جو الحجرة وهو يشعر بهبوط. وحدّث نفسه «أيعقل أن تهدم كلمتان عابرتان حياة كاملة؟". فكر في زوجته وولديه كمن يودعهم، وفي حجرة مكتبه وأبحاثه، وصعبت عليه نفسه، وحاول أن يتذكر من الذي جرجره إلى ذلك الاجتماع المشؤوم.

اعتدل الضابط الشاب ببسمة خفيفة كمن يصحح خطأ:

- لكن اطمئن يا دكتور ولا داعي للقلق.

دبت الدماء في أوصال الدكتور فخري، كمن ألقيَ إليه بطوق نجاة وجمع ساقيه الممدوتين واستجمع أمله:

- كيف؟

- لأنك ستواصل حياتك كما اعتدتها.

وأضاءت وجه الضابط بسمة من يقدم عرضًا سحريًا ويثق بحكم الخبرة أنه سيلقى الإعجاب:

- أنت تتجه إلى الجامعة يوميًا في التاسعة صباحًا.

- نعم. بالضبط.

- تعود إلى البيت تقريبًا في الثانية ظهرًا؟

- تمامًا.

- عصر كل ثلاثاء تلتقي بأصدقائك القدامى في مقهى "سهر الليالي"؟

- مضبوط يا فندم. المعلومات كلها سليمة.

ضحك الضابط بسرور.

- ولن يتبدل شيء من كل هذا. ستواصل حياتك كما كانت!

تجمد وجه الدكتور فخري عاجزًا عن الفهم وطلع صوته كأنما من جب عميق:

- أواصل حياتي؟ و... وماذا؟

- كل ما في الأمر أن لدينا الآن نظامًا جديدًا.

- جديد؟ أي نظام؟

- ألا تسمع عن سجون في الخارج تسمح لنزلائها بمغادرة السجن وزيارة أهاليهم ليوم أو اثنين ثم العودة بعد ذلك؟

- أسمع.

- هي التجربة ذاتها. إذا كانت الثقة في المعتقلين أمرًا ممكنًا بحيث نسمح لهم بقضاء يوم مع عائلاتهم، فما الذي يمنع أن نسمح لهم، ليس بيوم لكن عدة أيام، بل وقضاء فترة الاعتقال كلها في الخارج.

قطب الدكتور فخري ما بين حاجبيه وتقلقل على الكرسي وسأل بريق جاف:

- وكيف يكون اعتقالي إذن؟ أقصد من الناحية

الإجرائية؟

- يكفي أننا قمنا بإبلاغك. العملية كلها ثقة.

طرف الدكتور فخري بعينه اليمنى ثم بحلق في وجه الضابط الشاب الذي نهض واقفًا وابتسم بكياسة وهو يهز يد الدكتور فخري مصافحًا:

- نحن الآن نعتمد على الضمير.

وأشار إلى باب الحجرة: شرّفت ونوّرت. تفضل. من هنا.

*****

غادر الدكتور فخري مبنى الداخلية، وسار بخطى هادئة دون أن يلتفت خلفه، تمنّى لو بلعته الأرض كما تبتلع الصحراء قطرة ماء فيختفي بعيدًا عن المبنى. كان بحاجة إلى المشي طويلاً وحده ليعيد ترتيب رأسه المشوّش، فسار حتى ميدان التحرير وفي الطريق برقت أمامه الكلمتان اللتان أفلتتا منه في الاجتماع. ألا يحق له أن يقول شيئًا للمصلحة العامة؟ قل، لكن لا تتسبب في تجويع أولادك، فليس ثمة مبادئ بعيدًا عن بشر بعينهم. والحقيقة؟ فرصتك لنشر الحقيقة بالعلم والتنوير أكبر طالما قدّرت نعمة الحرية لكن ما جدواك وأنت رهين زنزانة؟ مع ذلك فإنني معتقل الآن؟ نعم لكنك حر أيضًا. ساقته قدماه حتى شارع رمسيس، فتوقف في الميدان يرقب زحمة السيارات والبشر، حائرًا أيفرح بوضعه الحالي أم يحزن.

صباح اليوم التالي راقب الدكتور فخري زوجته

وولديه ساعة الإفطار وهم يتناولون الطعام، فلم يتلمس في نظراتهم أو حركاتهم أي إشارة إلى اعتقاله، كانوا يحشون أفواههم بالبيض المسلوق والجبن دون أن يعيروا أي اهتمام لشيء آخر. في العمل أيضًا لم يتوقف أحد عند الموضوع ولو بنظرة أو سؤال عابر. في البداية أثارت تلك اللا مبالاة دهشته، ثم تذكّر أن اعتقاله حسب النظام الجديد يجعل من الصعب تمييزه عن غيره، فصار يتردد على محاضراته بانتظام ويقول لنفسه وهو في طريقه إلى العمل «ينبغي أن أعيش على أساس أن شيئًا لم يحدث، مع مراعاة أن شيئًا قد حدث". خلال عدة شهور اعتاد الدكتور فخري على النظام الجديد، لكن حيرته كانت تشتد في الشارع وفي الباصات أو داخل محلات البقالة، وهو يدقق النظر في وجوه الناس، فلا يجد ما يستدل به على أن الشخص «معتقل نظام جديد» أم لا. فكفّ عن التحديق في ملامح الناس وأخذ ينصت إلى ما يقولونه، فوجد معظمهم يقولون الشيء وضده، ويؤيدون موقفًا وعكسه، يدعمون مواقع خصومهم بحرارة، ويرحبون بمقترحات أصدقائهم بفتور، فلم يستدل على شيء، وكان عقله يثب من ناحية إلى أخرى في تحديد وضعهم: معتقلون نظام جديد؟ أحرار؟ إلى أن تعب تمامًا، فتوقف عن محاولة تمييز هؤلاء من أولئك، واكتفى بالحذر في أحاديثه، وشاعت في كلامه رصانة تضع القضايا كلها على قدم المساواة، وقلّ كلامه في المقهى مع أصدقائه، وصار

يقضي أغلب وقته معهم صامتًا ينفخ دخان النرجيلة مرسلاً بصره إلى المارة. لكن الحيرة كانت تسكن أعماقه، مثل سمكة قرش مختفية، تثب في لحظة وتنقلب إلى نظرة شك مسددة نحو من يتحدث إليه، فيجازف الدكتور فخري سائلاً بصوت خفيض:

- حضرتك نظام جديد؟

فيجيبه الآخر بحيرة:

- نظام جديد؟! ماذا تعني؟

فينكّس الدكتور فخري عينيه على بسمة مريرة:

- النظام الحالي؟

ولا يتلقى ردًا شافيًا.

لكن تلك الحال لم تدم طويلاً، فبعد نصف العام تقريبا تلقى الدكتور فخري استدعاءً جديدًا، فاتجه إلى مبنى الداخلية مرة أخرى، وسار في ذات الردهة الطويلة الكئيبة إلى الحجرة الموحشة العارية الجدران. هناك نهض الضابط الشاب وصافحه بترحاب شديد قائلاً:

- تفضل بالجلوس يا دكتور. لن أطيل عليك. أردت فقط أن أزف إليك نبأ سارًا.

- خيرًا إن شاء الله؟!

- تقرر إطلاق سراحك!

- سراح من؟!

- سراحك أنت.

- أنا؟!

- نعم. صدر بالأمس قرار بالإفراج عنك مع خمسة

آخرين.

جلس فخري حائرًا.

- إذن.. أنا حر؟

- نعم. وأرجو بالطبع أن تقدّر أن ما حدث كان إجراءً للصالح العام. الآن واصل حياتك كما كانت! أنت تتجه إلى الجامعة يوميًا في التاسعة صباحًا؟

- نعم. بالضبط.

- تعود إلى البيت في الثانية؟

- تمامًا.

- تلتقي بأصدقائك القدامى في مقهى "سهر الليالي" عصر كل ثلاثاء؟

- مضبوط يا فندم.

ضحك الضابط:

- أكرر التهنئة.

وأشار بأدب إلى باب الحجرة:

- واعلم أننا الآن نعتمد على الضمير.

*****

رأس الديك الأحمر

قبضتان ضغطتا جناحيه بقوة إلى جنبيه، فأحالته إلى كتلة مدمجة لا يتحرك منها سوى الرأس بمنقاره يضرب يمينًا ويسارًا بجنون. اجتهد ليتملص من القبضتين مهتاجًا بحب البقاء. حث جناحيه على الرفرفة بدون جدوى. لحظة، هوت بعدها السكين على عنقه بضربة باترة فصلت رأسه. طار الرأس في الهواء مسافة ثم هوى على الأرض، تقلّب متدحرجًا حتى سكنت حركته تحت حافة الثلاجة. راحت العينان الضيقتان اللامعتان تحيطان بالمشهد أمامها، تتابعان خيط الدم على البلاط الأبيض، تلاحقان تخبط البدن بين قدمين راسختين.

دم لم ينزفه الجرح بعد واصل مسيرته في الدماغ وفي البدن المفصولين. يحدق الرأس مذهولاً بجثمانه وهو ينهض متحاملاً على مخالبه وساقيه وفخذيه. ينفش الجثمان ريش صدره ويتقدم خطوة وحده من دون رأسه. يتمايل. يضغط على مخالبه ليحفظ توازنه. يلتفت إلى اليمين. يتوقف متجمدًا. بركة دم صغيرة تجري حول مخالبه. يشرئب نصف العنق المفصول متلفّتًا بالغريزة بحثًا عن طريق.

يرمق الرأس ساقيه بعيدتين عنه ترتجفان. هما ساقاه، وهذا صدره الذي طالما شق الهواء من أعلى سور البيت القديم، والريش البني الأقرب للأحمر ريشه، اختال به بعد معاركه مع الديوك الأخرى. يشتعل الرأس رغبة في الزحف إلى بدنه. تغدو الرغبة جارحة من اليأس، فيرتد

إلى ذكرياته. فجر القرية وهي تفيق على صيحته، هواؤها، سماؤها. الغيطان المفتوحة أمامه. الوثب إلى حافة بئر المياه. الدجاجات تحيط به في نصف قوس في مشيه وفي جثومه حين تعتم الدنيا. الزرع الذي يبس فجأة من حوله. الكلاب التي ضمرت. اليد القوية تختطفه وتزج به في قفص. تسوقه إلى مكان بعيد. العش الغريب. منقاره وهم يقصونه بآلة حادة. فتات الطعام. حلمه مئات المرات أن يستعيد حريته. بدنه كان يتردد ويطوي جناحيه على السلامة. الآن يتفجر البدن وحده بالمهانة المختزنة طويلاً. يهتاج ثائرًا يفتش عن منفذ. يخطو بمفرده متخبطًا. يرتطم بساق سلم خشبي على الجدار. يكاد أن يقع. يشد عضلاته ليظل واقفًا. يندفع غير آبه. يصطدم بماسورة تحت حوض الماء. يتمهّل. ترتعش كل خلية فيه بغريزة التفكير.

الرأس ملقى قرب حافة الثلاجة بعُرفه الأحمر يرى طريق النجاة. الباب! إذا عبر البدن من الباب سيسترد حريته وشموخه. الباب. ابتهل الرأس إلى الرب أن يمنحه لحظة واحدة مع بدنه ليبثه الرسالة. الباب. لكن خيوط الدم توشك أن تنهي دورتها الأخيرة في الرأس. يشعر بعطش قاسٍ. بضعف. بدوار. باختلاط الرؤى والرغبات والذكريات. بحاجته الماسة إلى دفء بدنه وحرارته. تتباعد ومضات عقله وتبهت. تغيم بينه وبين بدنه المسافة القصيرة من البلاط الأبيض.

فجأة، انفلت البدن. رفرف لأعلى. دار في الهواء دورة

عجيبة غير متوقعة. خفق جناحاه بين الأرض والسقف. اندفع إلى نافذة مفتوحة وانطلق منها إلى الحرية.

تطلع الرأس إلى النافذة بنظرة خابية. لقد نجا؟! نجا! كيف لم تخطر النافذة على بالي؟!

ينطفئ لون العرف الناري على البلاط الأبيض. يحشد الرأس كل ما تبقى له من ومض. يتسمع جناحيه في الهواء البعيد. إنه أنا من دوني! فكيف حدث ذلك؟

*****

قصة

كان يهم بإلقاء عقب سيجارة في الشارع عندما لمح ورقة مجعدة على الرصيف ترتعش أطرافها من هبات الهواء. انحنى ورفعها، قرّبها من عينيه وقرأ تحت النور الشاحب السطور الأولى منها، فاكتشف أنها قصة. حدق فيها فطرفت بعينيها بنظرة غائمة محرومة.

نفض ما علق بسطحها من غبار ووضعها في جيب الجاكتة الداخلي.

من عند المحطة استقل الأتوبيس ووجد مقعدًا شاغرًا قرب نافذة، فجلس وراح يتابع ببصره الطريق وهو ينزلق للوراء، بمداخل بيوت معتمة وأضواء محلات وظلال بشر، لكن عينيه الداخليتين كانتا موجهتين إليها في جيبه، شاعرًا بالسعادة لأنه قابلها، وبالقلق من أن تكون خيالاً. بشكل لا إرادي مد أطراف أصابعه وأخرجها من جيبه بحرص، نظر إليها فوجدها نائمة بعمق وعلامات التعب بادية على وجهها الصغير، كأنما قطعت طريقًا طويلاً أنهكها. مرقت نسمة باردة من النافذة ومسّتها، فحركت أنفها الدقيق الصغير لأعلى تتلمس الدفء المنبعث من صدره، فأعادها إلى مكانها وأرقدها برفق محاذرًا أن يهتز.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء حين بلغ البيت. فتح باب الشقة ودخل إلى صمت الفسحة، ولاقته الصور المعلقة على الجدران تبثه برصانة وحزن رسالة عتاب مبهم. عن يمينه حجرة النوم، وعن يساره حجرة

متوسطة بابها مفتوح؛ دلف إليها. مكتبه تحت نافذة عريضة، جلس والنافذة خلفه، عند الجدار المقابل كنبة، وفي المنتصف منضدة واطئة بسطح من زجاج. أضاء الأباجورة الموضوعة على المكتب، وأزاح صفين من الكتب المكدسة، وفرد القصة أمامه. نظر فيها باهتمام. بوسعه الآن أن يتأملها بهدوء. قصة دقيقة، صغيرة، يصعد صدرها ويهبط منتظمًا بكلمات معدودة نظيفة. وبينما هو مستغرق في تأملها فتحت عينيها، إما من وخز الضوء أو الجوع، وأرسلت من عينين جميلتين نظرة غائمة، ثم مالت بوجهها متجنبة مصدر الضوء، فأطفأ الأباجورة، وأخرج من الجاكتة المُلقاة على ظهر الكرسي علبة سجائره، وجلس والنافذة خلفه يدخن ويقرؤها على مهل.

من السطور التي كان خطها واضحًا تراكبت حكاية نجّار شاب في قرية، هام بصبية آية في الحسن والجمال، إذا تنفست، وإذا نامت، وإذا مشت وارتجّت فاكهة صدرها، فإن ضحكت تتابعت ألوان الجنة كالمروحة في عينيها؛ ولع النجار بها، ونما هواها في روحه، فصارت كل نهار تطل كالقمر على قلبه، وتحرق كل ليل فؤاده كالشمس. أخيرًا عقد عليها، وفي الليلة الأولى لهما داخل الكوخ، راح يفك أزرار ثوبها مرسلاً حولها أغانيه، لكنه كان ما أن ينتهي من فك الزر الأخير حتى تعود الأزرار وتسد الثوب المسحور، يحاول ثانية، مرة بعد الأخرى، إلى أن يتقد من لوعته وتتوهج عظامه

فيحترق من رأسه إلى قدميه أمام عينيها. مساء اليوم التالي يولد النجار من جديد، يقف ثانية مرتجفًا قبالتها، ويمد أصابع يديه الاثنتين مرتعشة إلى طرفي الثوب، منهكًا من دورة اليأس والأمل، ومن التوتر الذي يتوهج منه الضوء، ومن انطفاء الضوء.

في الهامش كانت هناك ملاحظات مدونة أغلبها غير مقروء، كُتبت بخط متسرع دقيق، كأن التي سجلتها امرأة، أكانت تلك ملاحظات الصبية حاولت بها أن تفصح عن شيء؟ عن أمل عصف بها داخل الكوخ في اكتمال الكائن الإنساني؟

وضع طرف تمثال حديدي صغير على حافة الورقة لتظل مفرودة، ونهض متجهًا إلى المطبخ. على الرخام قرب الحوض رأى أطباقًا متسخة وأكوابًا بتفل الشاي. فتح الثلاجة ليرى إن كان فيها ما يثير شهيته فلم يجد سوى معلبات سردين. أغلق باب الثلاجة وهو يتساءل هل ثمة سعادة في الحب! خرج إلى الفسحة، وتوقف في منتصفها، استولت عليه رغبة جامحة أن يتحدث إلى أحد، كالنبتة التي يتحتم عليها أن تشق سطح الأرض لتحيا، شخص ما، لن يصارحه بأنه وجد قصة، فقط يتوق إلى تبديد الصمت بصوت إنساني حي. تناول دفتر التليفونات من فوق منضدة بين مقعدين، وأخذ واقفًا يمر ببصره على الأسماء، بادئًا من الصفحة الأولى، معارف، أرقام مطاعم الوجبات السريعة، صيدلية، مغسلة، قلة من الأصدقاء فارق بعضهم الدنيا،

لكنه لا يجرؤ على شطب أسمائهم. حط عليه ذلك الشعور الثقيل الذي يهبط عليه عادة في ذلك الوقت الذي يسبق الليل، أنه مقطوع، سقط على سطح الكون بالمصادفة، مثل قطرة مطر أو نقطة ضوء، كل ما يجمعه بالعالم وجود مشترك مبهم. لم يعتب على شيء، لا بد أنه هو الآخر مذنب في جانب ما. عاد إلى حجرة المكتب وأحنى رأسه وكتفيه فوق القصة، مرر أصابعه بين سطورها المنسدلة على جبينها، فباعدت ما بين جفونها بتعب، ولاحت في عينيها لمعة بسمة واهنة، وتأملته مرهقة بالعطف الذي يقود الأطفال إلى الحقيقة. بسط راحته خفيفًا فوق سطحها، وأبقاها هكذا قليلاً، يبثها بحرارة يده محبته، ثم تركها تنعس.

ثلاثة أيام في الأسبوع يذهب إلى عمله، يستيقظ في الثامنة، يغتسل ويرتدي ملابسه، يعد إفطارًا مع القهوة، يتناوله دون عجلة، ثم يغادر البيت في التاسعة. بعد نصف الساعة يبلغ بوابة الجامعة، يقضي ساعتين أو ثلاث ما بين المحاضرات واجتماعات مجلس القسم، ثم يرجع إلى البيت فيعكف على كتاب أو بحث، يخرج في المساء لمجرد جولة في الشوارع ليرى المقاهي والناس ويريهم نفسه، أحيانًا يقصد بيت أخته في زيارة قصيرة، وفيما ندر يشهد عرضًا مسرحيًا. يعيش هذه الحياة ويتأملها، كأنما يشهدها من خلف زجاج شفاف يحجب عنه العطر والأصوات والدفء.

الآن، ومنذ وقت، ملأت عليه القصة حياته، فصار يلزم

الصمت حين يتجادل زملاؤه بالعمل في أسباب الشعور العام بالضياع واللا جدوى، أو كيف تحول الوطن من التاريخ والآمال إلى مجرد مكان، يتظاهر بأنه يصغي ويهز رأسه كمن يتابع كل كلمة، بينما يطوي قلبه على صورتها بعنف، كما تعتصر قبضة الغريق طوق النجاة، وما أن يؤوب إلى البيت حتى يتجه إليها رأسًا، يتفقد حالتها، يجلس بالقرب منها ويطعمها كلماته الساخنة الصغيرة، واحدة وراء أخرى، ويمكث يرقب فمها الدقيق وهي تتثاءب شبعانة هانئة، إلى أن ترفع بصرها إلى سقف الحجرة وتغيب في رسوم الظلال هناك، تلاغي نفسها بغمغمة حتى تنعس، وتفعم قلبه برائحة الطفولة الطاهرة.

يومًا بعد يوم تكبر القصة على مهل، تتقوت في امتلائها على تحولات روحه وقراءاته ويقينه وشكوكه وذكرياته التي يودعها فيها كل ليلة، يومًا بعد يوم يتماسك جسدها وتنتبه حواسها، وتغدو نظرتها مع الوقت أكثر وعيًا. صارت تتعرف إلى صوته ووقع خطواته حين يُقبِل عليها، ثم فاجأته ذات يوم فانفلتت من بين ذراعيه، ووقفت وحدها من دون مساندة، لحظة كاملة، وسرعان ما اندفعت بجنبها إلى الناحية اليسرى تتدافع في اتجاه واحد حتى سقطت على الأرض. بعد ذلك باتت تمشي معتمدة على قطع الأثاث، تتأرجح في الفراغات بينها، ثم ترفع يديها محاولة أن تحتفظ بتوازنها وحدها، وما أن توشك على الوقوع حتى تلتفت

نحو مقعده بلهفة، وتنطلق إلى ذراعيه المشرعتين فينتشلها لأعلى، تطوق عنقه بأنفاس متلاحقة كمن نجا بمعجزة من موت محقق، فيضمها إليه بشدة كما تحتضن أرض جرداء نبتة مورقة.

في المساء يسود الهدوء حتى أنه يستطيع أن يسمع الأصوات الخفيضة من الطريق، أو مواء قطة على السلالم، يجلس ويكتب وتقف هي على الكرسي خلف ظهره، تتعلق بعنقه، وتتابع من وراء رأسه ما يكتبه أولاً بأول. هذه المرة أصابتها الدهشة وهي تقرأ ما يخطه عن أحلام شبابه التي لم تتحقق، كل تلك الأحلام؟! وتعجبت كيف يبدأ الإنسان كبيرًا وينتهي صغيرًا! ثم انهمكت بشغف في متابعة حكايته مع نوال، وكيف تعرف بها بالمصادفة في محل بيع ملابس، وكيف انتهى ما بينهما. اعتصرتها اللوعة حين قرأت: «تقولين لي ألا نلتقي بعد ذلك؟ كأنك تأمرينني أن أكف عن التنفس". ارتجفت وشحب وجهها وهو يصف ما تقطر في روحه من شعور بأن السعادة في الحياة وهم عزيز. انزلقت من على الكرسي من غير أن ينتبه إليها، واتجهت إلى الكنبة المقابلة. تربعت وطفقت تتطلع إلى ظهره العريض، صارت قصته جزءًا من تكوينها، فامتلأت عيناها بالدمع وأحبته حتى أخذها النعاس.

اليوم تنظيف الشقة. تدخل نعيمة الصعيدية التي تعول زوجها النقاش وولديها، سمراء نحيفة ومتماسكة كالعصا، تقف برأس مرفوع عليه منديل، تضحك وهي

تؤرجح بقجة بيدها: هيه.. الدنيا حلوة؟ بعد قليل تصل أخته وداد لاهثة من الربو لتشرف على التنظيف والطبخ، يتعلل بموعد هام ليتفادى النقار الذي سينشأ حتمًا بين المرأتين لأوهى سبب. يغادر البيت، يشتري في الطريق إحدى الصحف ثم يجلس على أول مقهى يراه يقرؤها ويدخن. عند عودته صادفه محل لعب أطفال، فتمهل أمامه، تأمل بطة بزمبرك تسبح في حوض ماء، تخيل فرحتها بها، فاشترى لها واحدة. تستقبل البطة بدهشة وسرور بالغ، يجلس معها في جو الحمام الرطب يراقبان البطة وهي تتحرك في مياه المغطس! بعد قليل تنصرف أخته وداد قائلة: عندك أكل أسبوع، لا تنس وضع الطعام في الثلاجة حين يبرد.

في الثامنة مساء عندما هدأت حرارة الجو اصطحبها إلى الحديقة المجاورة، هناك سارا معًا في ممشى ضيق بين صفين من أشجار البانسيانا الوارفة، رفعت رأسها لأعلى وكفها راقدة في كفه، وأشارت بإصبعها إلى زهرة حمراء عالية دون أن تجد لها اسمًا، قال لها «زهرة"، أعادت نطق الكلمة باستمتاع كأن الزهرة توجد لأول مرة، فأخذ يسمي لها الأشجار والطير، فلم تعر حديثه اهتمامًا وانصرفت تتأمل بطريقتها كل ما حولها. عندما أحسا بإنهاك نضر ومنعش قررا العودة. يسير على الرصيف في اتجاه البيت ويرقب قدميها الصغيرتين في صندل أصفر وهما تتبادلان الخطو إلى الأمام.

في نحو السادسة من عمرها كانت تقول «باباطس»،

كان يحب أخطاءها، ولم يكن متحمسًا لتصحيح الكلمة لها، وعندما التحقت بالمدرسة وقرأت كلمة «بطاطس» لأول مرة في كتاب المطالعة عادت ورمت بحقيبة الكتب على الأرض غاضبة وباعدت ما بين ذراعيها باستياء «إنهم يكتبون ما يريدونه وليس ما أقوله!". يجلس ويراجع معها ألف باء، وجدول الضرب، ونصوص القراءة، وخريطة الكرة الأرضية، القارات والنجوم والأنهار والشلالات ومناجم الذهب والنحاس، ولا يقول لها إن في كل تلك الأماكن بشرًا متشابهين جدًا، ومختلفين، يبحثون جميعًا عن السعادة. تفرد ذراعها على المنضدة وتضع رأسها فوقه وتدعي النعاس بزفرة إذعان ضجرة.

يكتب ويعدل ويكتب ساعات طويلة، تنمو، يتركها، ينام ويستيقظ من تلقاء نفسه بعد غفوة مؤرقًا بفكرة أو جملة، يمد ذراعه إلى الكومود المجاور للسرير، يضيء النور، يسير نحوها في نومه يدوّن ملاحظة على الهامش، ويعود إلى السرير نصف نائم. كان يسجل على صفحتها كل ما لا يقوله لها، فيما بعد عندما تصبح شابة ستقرر بنفسها ما الذي ستحتاجه من كل هذا فتتذكره، وما الذي سوف تهمله ويظل مع ذلك جزءًا غير مرئي من تكوينها.

كان الصمت يسود الشقة، وهي نائمة حين ارتدى ملابسه ليذهب إلى الجامعة. مر على حراس بوابة القبة الضخمة وهم يتفحصون بطاقة كل طالب بدقة. منذ

عشرين عامًا، عندما بدأ عمله هنا، كان مشحونًا بالحماسة، لكنها تبددت وهو يرى كل يوم وجوه الطلاب الفقراء الصفراء، وتمكن منه الشك في قيمة المعرفة، وكاد يوقن أن المحاضرات التي يلقيها هي القدر الضروري من الصدق الذي تواصل به الكذبة حياتها.

بعد المحاضرة استراح في حجرة الأساتذة، ودار الحديث كالعادة عن الترقيات وزيادة الرواتب، ثم تطرّق أحدهم إلى شائعة سرقة رسالة علمية، وغمز آخر بعينه متسائلاً عن حكاية الدكتورة فلانة مع عميد الكلية. وسطع وجهها في خياله مثل شمس تغمر حجرة معتمة، ومنّى نفسه بأنه سيراها ويضع يديها بين يديه بعد قليل، فتنظر إليه بهدوء وتفهم كل ما يريد قوله من دون أن ينطق بحرف.

كانت قد بلغت العاشرة، وأصبح عندها الآن «ما تحبه"، و"ما لا تحبه»، وأخذت أحيانًا تثب من بين يديه وهو يكتب، تنفض عنها ما يخطه من سطور، وتصيح فيه ثائرة: كفى. دعنا نتجول في الميادين نتفرج بالمحلات نشتري آيس كريم وبسبوسة. وتضحك فيتناثر رذاذ نور من كل اهتزازة فيها كأنما بداخلها قطعة ألماس مشعّة. يطاوعها، يترك كل شيء ويخرج معها ويعودان محملين بأكياس الطعام والفاكهة.

حين كانا جالسين متجاورين على أريكة أمام التليفزيون ذراعه مدلاة تطوق كتفها، سألته بدهشة وإصبعها ممتد إلى مشهد قبلة حارة غيبت عاشقين

«لماذا يأكلان بعضهما بعضًا؟". هل كانت تفارق طفولتها حينذاك، أم بعد ذلك بقليل.. عندما اختفت الأسئلة، وتغيّر صوتها الطفولي الذي يشبه صوت الفاكهة وهي تتكسر؟ وحين أخذت تصبح أنحف وأطول كأن شيئًا راح يعتصرها ويضغطها ويشكلها في صورة أخرى، لتتفجر فيها في غمضة عين فاكهة الليل؟ تكور نهداها صغيرين لكن واضحين، وغدا عودها أكثر امتلاء وصلابة، وصارت نظرتها أكثر إثارة للعاطفة والعقل. كانت مثل سكين غير مرهفة، وفجأة أصبح حدها لامعًا جارحًا. متى انتبه إلى ذلك؟ هل حين سألته بنظرة شاردة عن اسم نجم سينمائي وسيم؟ أم عندما دخل إلى حجرتها على غفلة فاشتعل وجهها بالحمرة وتوارت خلف ضلفة خزانة مبهورة، تداري صدرها بيدها؟ ألم يدرك لحظتها أنه يشهد زوال آخر خيوط الصبا؟ ألم يفهم نظرة عينيها المصوبة نحوه بفرحة صغيرة خجلة، قلقة مذنبة تطلب الغفران لأنها تغيرت؟ أم أنه انتبه لذلك التحول الحاسم يوم أن خرجا للتسوق فالتفتت إليها أعين الشبان عند المحلات تحدق فيها، وأحنى أحدهم رأسه لها بنظرة خاصة؟ لن يجلس بعد الآن أبدًا بجوار سريرها يتملى وجهها طويلاً، ولن تناغي من جديد نفسها وتغيب في ظلال الرسوم على السقف، لن تسأله عن اسم الزهرة، لن تتعلق أبدًا بعنقه، لن تلثغ بكلمة «باباطس". الآن صارت تتخير الجونلات والبلوزات وهي تشتريها بدقة وصبر، وفي البيت تتأمل

في المرآة كل جانب من وجهها، وأخذت روحها تنأى عنه يومًا بعد يوم، مفارقة، مودعة إلى الأبد. لكن هل ستعود يومًا لتحدق إلى ذلك الماضي وتتذكر هذه الحياة؟

بالأمس.. وقت الغروب، كانت جالسة على فوتيه قرب أباجورة وبيدها كتاب، لمحته يعبر الصالة فسألته تفسيرًا لكلمة في بيت من قصيدة، جلس بالقرب منها وأرخى ذراعه على مسند الفوتيه، وعندما انحنى للأمام قليلاً لينظر في الكتاب، لامست كتفه كتفها، حدق في الكتاب، ومرت وهي نصف مطرقة في سكون بطرف إظفرها خفيفًا على سطح كفه الراقدة كأنما عَرَضًا، كأنما لأنها لا تجد ما تنشغل به. أكان الأمر كذلك؟ أم أنها كانت تقف على مشارف عالم جديد، تستكشفه بخدش صغير؟ ارتعش من مرور إظفرها على جلده. حوّل بصره ببطء إلى جانب وجهها، فوجده هادئًا محايدًا مثل وجه شخص يشرب جرعة ماء، حياد أقرب إلى اللا مبالاة. اشتعلت النار في بدنه وروحه من امتزاج البراءة المطلقة بالخطر الكامن في كيانها.

في صباح اليوم التالي لم يكن واثقًا ما إن كانت قد مرت بإظفرها على سطح كفه بالفعل أم أنه فكر في كتابة ذلك فوجده فيها؟ في المساء أضاف إلى مشهد جلستها أن شعرها كان ملفوفًا كذيل حصان، وحول عنقها وبشرة وجهها الوردية دارت رائحة هيّنة كتفاح في هواء الحقول، وحامت عند صدرها فوق بلوزتها الزرقاء المفتوحة، وحول البنطلون الأحمر الداكن

الضيق.

الآن صارت في أوقات غير قليلة تخرج وحدها، تقول «ظهر فيلم جديد رائع، سأذهب لأراه"، أو «سألتقي بصديقتي الليلة لنتجول معًا"، وتطبع قبلة خفيفة على وجنته وتنصرف مسرعة، غدت أقرب إلى أن تكون شابة، جميلة جمالاً فوق الاحتمال، شفتاها منفرجتان بكسل، ممتلئتان بعسل مثل تين برشومي مشقوق، وفي عينيها ينبعث من داخلها قلق وتمرّد يجعلها في الكثير من الأحيان تخاصم الأمكنة التي يحددها هو بأمكنة أخرى، بعيدة أو مجهولة، وتعاند الأحداث بوقائع من خيالها، فإذا انصاعت لما يكتبه فعلت ذلك مكظومة غاضبة.

تجاوز الوقت العاشرة مساء، جلس يكتب تحت ضوء المصباح. يهب عليه من النافذة المفتوحة هواء خفيف، يدرك أنه في سباق معها، عليه أن يضخ إلى قلبها آخر نبضة في قلبه، قبل أن تتملص منه وتفلت مندفعة نهائيًا إلى وجودها لتشق الكون بوجهها كما تشق مقدمة المركب بحرًا، فيحكم الناس عليها بصفتها حياة قائمة بذاتها، بينما يقف هو على الشاطئ وسط حشد من الآلاف، ضئيلاً، يتطلع إليها، بعيدًا، عرضة للتأثر بها مثل الآخرين، وهي لا تبالي إلا بنفسها وبجمالها وبشعورها القوي بذاتها ووجودها. عليه الآن قبل أن تفلت من يديه إلى الأبد أن يودع فيها تلك الجوهرة التي تُميز إنسانًا عن آخر، الشيء المكون من آلاف العناصر والذكريات

والعواطف المتفاعلة، الجوهرة التي تشبه قدر الإنسان لأنها تلمع وتنبثق من صميم تكوينه كله، وتمضي معه وبه إلى النهاية، الشيء الذي يتفق ومغزى الثوب السحري الذي ولدت به، الاستنتاج الذي تقطّر من جدران حياته كلها. الآن يعي النجار وهو يحترق أمام الصبية أن الحياة محكومة بجوهر فوضوي، يضوي في كسر صغير من مرايا الحطام في لحظات افتراق العشاق، وفي نظرات الأطفال البريئة الممزوجة بعتاب مؤلم، في الطمع والقسوة وسوء الظن، في الموت المستهزئ بكل منطق، في جفاف الورود. يعي النجار كل هذا، لكنه ما أن يولد ثانية حتى يكون قد نسي كل ما تعلمه، منصاعًا لحرارة العشق، فيعود إلى أزرار الثوب السحري يحاول فكها، محترقًا مرة بعد الأخرى.

خمس ليال كاملة يكتب كالمحموم، يكاد لا يرى سوى صور تتبادل مواقعها كالومض بلا نهاية، صور تتغير قليلاً كل مرة، تختفي، وتظهر كأنها أخرى، تتدفق في سيل متوهج من حمم مصهورة، ويقتطف من اندفاعها كلمة أو نظرة كزهرة من النار، يتأملها بين يديه فتفتر وتعتم، فينظر إلى ما كتبه بتشكك، ويشطب فقرات كاملة، ينهض ويتجه إلى المطبخ، يفتح علبة طعام محفوظ، يأكل ما فيها باردًا وعقله في الورق، يشطف أطراف أصابعه ويرجع للكتابة، يريد أن ينتهي قبل أن تفلت من بين يديه، قبل أن تهرب من روحه، خمس ليال لم يرفع خلالها سماعة الهاتف، وكانت تمر من أمامه

فتستفسر منه عن شيء، فيجيبها بعصبية وبجفاء لم تعهدهما، أو ينهرها طالبًا منها أن تسكت، أو يتجاهلها تمامًا كأنها لم تقل شيئًا. ينهض ويعد فنجان قهوة، يجلس من جديد. في الرابعة فجرًا، كان قد أودعها كل ما لديه، فنهض شاحب الوجه واليدين خاويًا كالشبح. ألقى بنفسه على الفراش تحت ضوء النافذة الخافت وأحس بالراحة، كمن تخلّص من عبء ثقيل. في تلك اللحظة وقفت هي في ركن الحجرة، تأملته بنظرة مشفقة، وهي تتساءل عما جناه من كل ذلك؟ ثم انسلّت بهدوء إلى الشرفة ومكثت هناك وحدها وهي تحس بالحزن لأنها أصبحت حرة.

في الصباح أعد لنفسه طعام الإفطار ودخل الحمام ليحلق ذقنه، رأى عينيه حمراوين من قلة النوم، واستغرب وجهه. ارتدى ملابسه وغادر البيت إلى العمل مرهقًا، وحين عاد إليها وجدها جالسة قرب الراديو بهدوء، في بلوزة محبوكة وجونلة واسعة، شعرها منسدل على جانبي وجهها، وقد أسندت ذقنها إلى قبضتها. لم تنهض، لم ترفع يديها لأعلى لتستقبله بفرح، لم تثب وتجرجره خلفها لتريه شيئًا جديدًا، فقط جلست بعينين رصينتين تستمع إلى أغنية.

في عصر ذلك اليوم ارتفعت درجة حرارتها فجأة، فصارت تفتح أدراج الخزانات بحثًا عن أسبرين وهي تهذي تقريبًا، دار حولها بقلق، وحين تحسس جبينها وجده كالنار، وفي انتظار الطبيب سألها مفزوعًا: ماذا

بك؟ أجابته بكلمات مهشّمة غير مفهومة وهي تشير إلى صدرها. ثلاثة أيام مضنية مرت، يطعمها ويسقيها ينظر إليها برجاء وهي راقدة في السرير، وفي اليوم الخامس بدأت تتماثل للشفاء، فتطلع إليها بفرح وقد زال خوفه، لكنها تأملته بعتاب صارم، بنظرة أقرب إلى القسوة، كأنما لم يربط بينهما شيء من قبل. حين استعادت عافيتها تمامًا بدأت تتحرك داخل المنزل بوجه شاحب، تحرك رأسها ببطء، وتمشي بحرص كامرأة كبيرة محبطة. أمسك بذقنها بأصابعه النحيفة ونظر في عينيها ليدرك ما الذي طرأ عليها، غير أنها أفلتت منه بفتور.

جلس في الشرفة وبيده قدح ساخن من الشاي، تتوالى أضواء السيارات تخترق عتمة الشارع ثم تتوارى. ما الذي بدّلها هكذا؟ كأنها شخص آخر؟ ومن أين تسللت إليها برودة الصقيع الذي يطبق على كل شيء؟ أهي الوعكة التي ألمّت بها؟ أم أنها تصد بشبابها ما تقطر على جدران حياته من إحباط وشك؟ مدركة أن عليها أن تصارع من أجل حياتها هي، بمخاوفها وآمالها هي، بعيدًا عنه؟

نهض وقد شبّت فيه الرغبة أن يعانقها بحرارة، لأنها لم تستسلم، ولم ترضخ لليأس. اتجه إلى حجرتها، دخل فلم يجدها هناك، وقبل أن يستدير خارجًا لمح خطابًا مُلقى على غطاء السرير، عاد وتناوله باستغراب، فوجد رسالة بدون توقيع يصرّح فيها صاحبها أنه يحترق

شوقًا إليها كل يوم، وأن عينيها لا تفارقان مخيلته. أيكون ذلك الشاب الأسمر النحيف الذي أحنى لها رأسه بإعجاب؟ ثم برق في رأسه خاطر عجيب، فرج الهواء بالخطاب في يده متسائلاً: أيشبه هذا خطها؟ هل أرادت أن تنقل له شيئًا على هذا النحو؟ وإلى أين خرجت؟

ألقى نظرة سريعة على ساعته وهو يرتدي ملابسه، وغادر البيت هو الآخر يذرع الشوارع القريبة من دون هدف، ثلاث ساعات مشاها، عاد بعدها، وحين فتح باب الشقة وجدها أمامه، واقفة خلف الباب وبيدها حقيبة صغيرة، كأنما كانت تنتظر رجوعه. وقفت أمامه مكتملة الجمال، بنظرة المرأة التي صهرتها العاطفة فأصبح كل ما فيها يبث الدفء، وقفت متأهبة لتشق الكون، وتتعرف على حقيقتها، حين تتحطم على الصخور، أو وهي تنجو من الرياح بمعجزة، هي الآن لا تبالي إلا بنفسها، لكن بحزن. حدق فيها طويلاً، مستفسرًا عن شيء لا يعرفه، فنظرت إليه كما يتطلع المرء إلى شخص أمامه، يملي عينيه منه بعمق استعدادًا لكي لا يراه، ثم غامت عيناها بعتاب، وارتعشت شفتاها. تقدّم نحوها وعيناه مفتوحتان على آخرهما بذهول. خطت نحوه خطوة ثم توقفت. رفعت كتفها اليمنى وأوشكت أن تقول شيئًا ثم تراجعت وأحاطت عنقه بذراع واحدة. أحس بوجهها دافئًا دامعًا. تراخت يدها، تركته، ثم سارت أمامه وانصرفت. هبط على السلم خلفها، وتبعها إلى خارج البيت. أرسل بصره خلفها وهي تمضي

بالحقيبة، إلى أين؟ إلى ماذا؟

انعطفت إلى شارع جانبي وتوارت خلف الناصية وهو متجمد في مكانه.

ظل لديه أمل أنها قد تعود في المساء، في الليل، في الفجر، انتظرها بكل ما في روحه من عصب وعاطفة وطاقة وهو يحدث نفسه بأن الانتظار الحقيقي حين يكون بكل كيان الإنسان يفتح طريقًا للنفوس ترجع عبره. لم ينم إلى الصباح، ولم ترجع، فأيقن أنها لن تعود، وأنه فقدها إلى الأبد.

*****

عبد الرحمن الخميسي

بقلم:يوسف إدريس

فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٠، كانت بورسعيد تحتفل احتفالاً داميًا بذكرى ثورة ١٩١٩، وكانت المظاهرات تجوب المدينة صاخبة، ورصاص الجنود الإنجليز يدوي في الشوارع، والشهداء يسقطون، والمصريون يجيبون بمتظاهرين أكثر، وشهداء جدد. في ذلك اليوم وفي ركن المدينة، ولد عبد الرحمن الخميسي، في وقت كانت عائلته كلها في شغل شاغل بأنباء القبض على خاله.

لم يكد يبلغ عامه الأول حتى كان أبوه متزوجًا من غير أمه، وأمه متزوجة من غير أبيه، وكالنبات البري قضى الخميسي طفولة محرومة، في بورسعيد والسويس وريف الدقهلية والقاهرة.

كاد يأخذ طريقه إلى الأزهر لولا أنه التحق بالمدرسة الإلزامية في منية النصر، وبارحها إلى الزرقا وشربين والمنصورة والقاهرة، حيث التحق بالمدارس الابتدائية والثانوية.

لم تعاونه الظروف على إتمام تعليمه بالجامعة، ولكنه تقلّب مع الحياة وتقلّبت الحياة به، فاشتغل في دكان بقال وكمساريًا في أتوبيس، ومؤلفًا للأغاني وممثلاً في جوقة موسيقية صغيرة تطوف بالقرى، ومعلمًا بمدرسة أهلية، ومذيعًا في استوديو مصر، ومؤلفًا مسرحيًا، ومخرجًا إذاعيًا، ومصححًا في مجلة، ومترجمًا للأخبار في صحيفة يومية.

ساعدته المطالعة على نظم الشعر، واجتمع لديه ديوان

كامل وهو في الثالثة الثانوية. وفي السابعة عشرة من عمره لمع اسمه بين الشعراء، وعرفته دنيا الأدب شاعرًا ذا إحساس عميق، وصاحب ميل طبيعي إلى الخوض في أغوار النفس.

من إحساساته تلك وميوله أقام مدرسة مستقلة، ومن قصائده التي ترجمت إلى الإنجليزية قصيدته عن الحرية.

نقلته أنغام الشعر بسهولة إلى أنغام الموسيقى، فدرسها وترجم إلى العربية بعض نقدها وتحليلها.

كانت القصة القصيرة قبل الخميسي وقفًا على طبقة معينة من الناس يكتبونها، وطبقة معينة يقرؤونها.

كان من أدوار الخميسي الخطيرة أن حطم طبقية القصة، فأصبح كل ذي تجربة يكتب، وكل ذي حياة يقرأ، وصار البقال والكمساري، والصراف، والبواب، من قرّاء القصة المصرية. وكذلك اتجه إلى حياتنا في قصصه.

نقل عشرات القصص الأوروبية إلى العربية، وكتب مئات القصص، وعددًا من الروايات وكثيرًا من التمثيليات.

عرفته الصحافة المصرية في السنوات العشر الأخيرة -وصحيفة المصري بالذات- في طليعة الكُتّاب المناضلين بعزم لا يلين، من أجل حقوق الشعب وحرياته، سواء في عهود الاستبداد والطغيان، أو في عهود الانتصارات الوطنية.

بعد ماضٍ في الرومانسية قال عبد الرحمن الخميسي

«ليتني أستطيع أن أجمع كل إنتاجي السابق من عقول القراء، لأشعل فيه النيران». ثم اتجه بقلبه ولسانه إلى المدرسة الواقعية في القصة، وتكاتف أيضًا مع رواد المدرسة الواقعية في الحياة، مؤمنًا بآدمية الإنسان ووجوده، وحقه في حياة حرة كريمة، ليس فيها جوع.. أو كبت.. أو حروب.

يوسف إدريس

مقدمته لمجموعة «قمصان الدم» ١٩٥٣

حضرة المحترم مفتش الحركة

إسماعيل أفندي جاد عبد العظيم!

من ذا الذي لا يعرف اسمه على طول خط السكة الحديد، الممتد من كوبري الليمون إلى ما بعد عين شمس؟

إنه مفتش الحركة الذي استطاع أن يكتسب شهرته الواسعة عند الخفراء ونظّار المحطات في أسرع من لمح البصر. فلم يكن قد انقضى على اشتغاله مفتشًا أكثر من أسبوع واحد، حتى صار صيته على ألسنة الموظفين، وكانوا يتندرون بحوادثه خلف المكاتب، حتى إذا أقبل عليهم كالذئب يحدجهم بنظراته الثاقبة من خلف منظاره، احتبست ضحكاتهم، وغاضت بسماتهم، وارتعشت أطرافهم، وكادت تقع من فوق رؤوسهم الطرابيش! فقد كان مقدم إسماعيل أفندي إنذارًا لكل من كان يُقبل عليه، بخصم عدة أيام من مرتبه الشهري.

وكان حضرة المفتش الهمام يتلمس أوهى الأسباب، ليوقع عقابه الصارم على أعناق النظّار والخفراء المساكين. كان يحنقه ويجعله يشد أطراف سترته إلى أسفل في عصبية واضطراب، أن يرى من الموظفين حركة تجرح تبجيله أو احترام العمل.

لقد أمضى قبل ترقيته إلى التفتيش خمسة عشر عامًا يعمل في أقسام السكة الحديد مثالاً لاحترام رؤسائه، وتقديس مواعيد عمله، وكان يسرّه أن ينهره رئيسه

ويزجره، ويرتفع صوته في تأنيبه، إذا هو تأخر دقيقتين في الصباح، أو إذا انصرف قبل أن تدق الساعة الثانية.

ولم يمر يوم واحد دون أن يقبّل يد رئيسه، وإلا.. فإنه كان يقضي طيلة نهاره فريسة الخوف من نقمة الرئيس وغضبه.

حدث ذات يوم أن قال له أحد زملائه «يا إسماعيل أفندي.. لماذا تضطرب وترجف أمام رئيس الأقسام؟ هذه خصلة ليست جميلة، وإنني أنصحك أن تشعر بتماسك شخصيتك أمام الرؤساء».

فقال إسماعيل أفندي:

- أرجو أن توفّر نصائحك، لأنني إذا خرجت من الحكومة، أكلتني البطالة والجوع واحتقار الناس!

وكان إذا ترك الديوان يمشي مرفوع القامة، منتفخ الأوداج، يتأرجح منظاره الكثيف فوق أرنبة أنفه من شدة الزهو.

ولقد جاءت ترقيته عيدًا بالنسبة إليه، فإن عمله في التفتيش يتيح له أن يقضي معظم ساعاته في القطارات والمحطات، ليستمتع باحترام مرؤوسيه، وطاعتهم العمياء.

ولن تنسى زوجته ولا أولاده، ذلك اليوم السعيد الذي هرع فيه إلى البيت يحمل قراطيس الفاكهة إليهم، وأي فاكهة! لقد اشترى يومها نصف أوقة تفاح بعشرين قرشًا، وثلاث أوقات من الجوافة، وقرع الباب في عنف بإحدى قدميه، ودخل كالفاتح المنتصر مبتهجًا يضحك.

وسألوه:

- ما الخبر؟

فقال:

- اشتريت لكم تفاحًا هذا اليوم، فقد أصبحت من الآن حضرة المحترم مفتش الحركة. نعم. مفتش الحركة يا زوجتي العزيزة.

فزغردت المرأة وتصايح أولاده وتشابكت أيديهم، وأخذوا يلفون في حلقة راقصة حول مائدة الطعام، وهم يقفزون ويمرحون، حتى أوشكوا أن يهدوا البيت على ساكنيه.

وقال هو لامرأته:

- افتحي الراديو طول النهار والليل يا زوجتي العزيزة، وارفعي صوته حتى يبلغ عنان السماء، وانحري دجاجة كي يطعم الأولاد هنيئًا مريئًا.

وتوافد الجيران عليه مهنئين، وأخذت أكواب الشربات تدخل مملوءة وتخرج فارغة، وراح إسماعيل أفندي بين الفينة والفينة يتكرم بالبسمات وبألفاظ الشكر على مهنئيه، ويهز رأسه في كبرياء وفخار.

وانفض الجمع، وكان الرجل يتمنى لو أنه لا ينفض أبدًا.

وانقضى الليل، والرجل يستحث الصباح إلى السطوع، كي يهرول إلى تولي عمله الجديد، حتى إذا قام الناس، ارتدى بدلة رمادية لم يلبسها منذ عام ونصف، وكان يدّخرها للظروف السعيدة، وكوى طربوشه، وطلى

حذاءه واشترى علبة سجائر كاملة لأول مرة، وذهب بعد ذلك إلى مكتبه موفور السعادة والنشاط.

بين الساعة ١١:١٠ والساعة ١٢:١٠ مساء، لا تقف القطارات عند محطة منشية الصدر. ولقد تعوّد نجيب أفندي مخزنجي المحطة والقائم بأعمال الناظر، أن يتناول عشاءه في هذه الفترة مع الخفير.

وكان كل منهما يدفع قرشين ليشتركا في ثمن العشاء. وقد أراد نجيب أفندي أن يظفر في تلك الليلة بعشاء فاخر نوعًا ما، فقال للخفير:

- ما رأيك يا زهران لو أن كلاً منا دفع خمسة قروش كي نشتري رطلاً من اللحم ونسلقه؟

- والله فكرة طيبة يا نجيب أفندي. زهقنا من أكل الخبز والجبن.

- ولكن كيف نسلق اللحم؟

- اترك هذا على محسوبك.

وخرج الخفير إلى جزار قريب، فاشترى رطلاً من اللحم ورغيفين، وعاد إلى كشك المحطة، فأحضر وابور السبرتو، ووضعه على المكتب، وغسل كوزًا كان في ركن الكشك، وقطع اللحم، وأسقط معه في الكوز بصلتين وقليلاً من الفلفل والملح.

ثم أشعل وابور السبرتو ووضع فوقه الكوز، وترك اللحم ينضج.

وأخذت رائحة البصل واللحم تتصاعد من الكوز، فتملأ خياشيم الخفير والمخزنجي، وتشيع في الكشك.

كان الليل عديم النجوم، والسكون جاثمًا على كل شيء، وقد غاب صوت ماسح الأحذية عنهما في تلك الليلة، لأنه على غير عادته نام مبكرًا جوار الشجرة القائمة عند مدخل المحطة.

وخرس لسان الخفير والمخزنجي، فلم يقطعا ذلك السكون الطويل بكلمة واحدة، ولكنهما مَدّا أنفيهما تجاه الكوز، ونسيا كل شيء عداه.

ومرت عدة دقائق على تلك الحال، مط بعدها نجيب أفندي شفتيه، وبلع ريقه، ثم قال:

- ألم ينضج اللحم يا زهران؟

ولم يجبه الغفير، وإنما رد صوت غليظ يقول:

- السلام عليكم.

ونظرا.. فإذا أمامهما إسماعيل أفندي جاد عبد العظيم بلحمه ودمه وقامته المرفوعة.

وصاح الخفير وهو يشهق منتصبًا:

- حضرة المحترم مفتش الحركة؟!

ورفع يده إلى جبهته محييًا تحية الجندي للضابط الكبير.

وقال المخزنجي في صوت مرتعش:

- تفضل يا سعادة البك.

وجلس إسماعيل أفندي على كرسي قدّمه إليه الخفير، وأسرع المخزنجي فحمل الموقد والكوز إلى أحد الأركان، وقال للخفير:

- اعمل قهوة لسعادة البك.

وخف الخفير، فأخفى كوز اللحم، وراح يعد القهوة.

وكان إسماعيل أفندي يجيل بصره في كشك المحطة، ويرمق كل شيء فيه بنظرة مستطلعة فاحصة.. لم يتكلم كلمة واحدة إلا بعد احتساء القهوة، فانتفض قائمًا وشد أطراف سترته إلى أسفل في عصبية واضطراب، وقال وكأنه يقتطع كلماته من بدنه:

- السلام عليكم.

ثم ابتلعه الليل!

وتنفس المخزنجي والخفير الصعداء، وعاد الأخير فوضع كوز اللحم فوق النار حتى نضج، وجعلا يأكلان.

ثم دق جرس التليفون، فتناول نجيب أفندي السماعة، وقال وهو يمضغ:

- آلو!

- أنا مفتش الحركة يا نجيب أفندي.

- إسماعيل بك؟

- اكتب من فضلك إشارة تليفونية.

- تفضل يا سعادة البك.

وبلع نجيب أفندي اللقمة دون مضغ، وفتح درج المكتب، وأخرج قلمًا في سرعة البرق، وأعاد قوله وهو يتأهب للكتابة:

- اتفضل يا سعادة البك.

- اكتب.. من مفتش الحركة إلى منشية الصدر.. عند مروري على محطة منشية الصدر، وجدت رائحة طهي تنبعث من المكتب، وهذا يتنافى مع كرامة أفندي

ومكتب يمثلان المصلحة، ونرجو أقواله. إمضاء..
المفتش: إسماعيل جاد عبد العظيم.

وتلعثم المخزنجي. وهو يقول:

- الحقيقة يا سعادة البك...

- لا حقيقة ولا غيره.

وانقطع صوت المفتش عن أذن نجيب أفندي، فانقطع بذلك الأمل في الصفح والرجاء.

قال المخزنجي للخفير بعد أن قرأ له نص الإشارة:

- ما العمل الآن؟

وأجاب الخفير بعد أن ضرب كفًا على كف:

- والله مصايب.

- هل معنى هذا ألا نأكل؟

- وماذا نصنع في عقلية المفتش المحترم؟

- اسمع ما أكتب يا زهران؟

وأمسك المخزنجي الريشة، وتنحنح وهو يقرأ على الخفير ما يكتبه، قائلاً:

- رائحة الطهي كانت منبعثة من أحد المنازل المجاورة للمحطة، ويظهر أن أنف حضرة المفتش شديدة الحساسية، حتى أوهمته أن الطهي كان داخل كشك المحطة.

إمضاء.. نجيب عبد السيد مخزنجي محطة منشية الصدر.

وهنا صاح الخفير:

- برافو يا نجيب أفندي. هذا هو الكلام الفصيح.

*****

وفي اليوم التالي، حمل إسماعيل أفندي ذلك التعليق إلى رئيس الأقسام، بعد أن طلب خصم أربعة أيام من المخزنجي، لأنه لم يُحسن الأدب عندما يخاطب رئيسه.

وخفض رأسه وهو يتضرع إلى سعادة رئيس الأقسام أن يوافق على توقيع ذلك العقاب، فكان له ما أراد.

وخرج من الديوان، والفرح يملك عليه لُبّه، ثم توقف في سيره، وحبس ابتسامته، وضرب قدمه على الأرض، ومشى وقد أحس عند ذلك بكل أنفة، أنه فعلاً أصبح حضرة المحترم إسماعيل أفندي جاد عبد العظيم مفتش الحركة بالسكة الحديد!

*****

من مجموعة « أمينة وقصص أخرى» الكتاب الماسي.

الأبله يحب

لم يكن «مرعي» قبل عام واحد، على هذه الصورة التي يتفكّه بها الرائح والغادي من سكان درب البزازرة.

إنه الآن مقوّس الرجلين، يندفع صدره إلى الأمام إذا مشى، وترتفع كفه اليمنى وتنخفض في حركة آلية بين اللحظة والأخرى، يتمايل عنقه الممتلئ، فيتدحرج رأسه إلى اليمين، ثم إلى اليسار، ويهمهم، ويغمغم ويدمدم، حتى يستطيع أن ينتزع الألفاظ، فتمتط حروف الكلمات وتتقطع في فمه، ويغني في صوت سائح النبرات، غنوته التي لا يعلم لماذا يحبها، ولا يعرف لماذا يغنيها!

«آه.. يا عز.. يز.. عيـ.. ني.. أنا.. بدّي.. أر.. وّح.. بلـ.. دي".

إن ذاكرة مرعي الآن لا تعي شيئًا غير أن اسمه مرعي، وهو لا يسعى وراء قوته، ولكن يرتجل البحث عن اللقمة إذا جاع، وعن مكان يضجع فيه إذا غلبه النعاس.

إن صفحة نفسه بيضاء خالية، لا يغيم فيها سوى دخان غرائزه، التي يطرأ إلحاحها، فتتدلى شفته السُفلى وترتعش، ويهيم على وجهه في الشوارع، وهو يدب كما تدب السائمة، ويترنح كما يترنح الذبيح ويغني غنوته الوحيدة، يتقطر من نغماتها ضباب مشاعره الباهتة.

إن مرعي الآن غير مرعي قبل سنة واحدة، وهو لا يحس أنه عاش هذه السنة، بلا معنى ولا غاية، ولا أمل، بل إنه لا يذكر ما جرى له في الدنيا قبل هذه السنة، ولا يعرف أن ستارًا كثيفًا قد انسدل أمام بصيرته، فحجب

عنها تفاصيل ماضيه.

وأي ماض لهذا الأبله؟!

إن حادثة واحدة وقعت في أيامه المكدودة أحالت مرعي إلى ما هو عليه الآن.

كان يعمل قبل تلك الحادثة بنّاء، فسقط ذات مساء من أعلى السلم الخشبي أثناء عمله، وهوى على الأرض فاقد الإدراك، وتلقفه أحد المستشفيات، وقرر الطبيب أن مرعي أصيب بارتجاج في المخ، وظل المسكين ثلاثة أشهر بالمستشفى، خرج بعدها إلى الحياة على صورته الراهنة، مقوس الرجلين لا يذكر غير اسمه، ولا يعي شيئًا من كل ما حدث له، ولا يعرف أن له أمًا وأبًا ينتظران في قريتهما حتى هذه الساعة أن يعود مرعي، وينسجان من أحزانهما لافتقاده ما يعجّل بهما إلى حافة القبر.

ولم يدر ما الذي ساقه إلى درب البزازرة، ولا ما جعله يسكن إلى الدرب ويستريح فيه؟

قد يكون السر هو وجود مخبز الحاج حنفي في الحارة، فإن مرعي لقي من عطف الحاج ما حبب إليه أن يستوطن الدرب، وأن ينام فيه على الأرض، وأن يطلب رغيفًا من الحاج كلما جاع فيعطيه الرجل ما يطلب.

وقد كان الحاج حنفي يتفاءل بالأبله، ويزداد من أجل ذلك عطفه عليه يومًا بعد يوم، ويعتقد أن في وجوده معه ما يقرّبه إلى الله.

ولاحت للحاج حنفي فكرة حسنة.

لماذا لا يشتغل مرعي في المخبز، فتحل بركته فيه؟

إن مرعي مفتول الساعدين، عريض المنكبين، لا يكلف غير اللقمة والمأوى، ثم لا تشتهي نفسه بعد ذلك شيئًا.

ولا تنقضي الساعة الواحدة، حتى يكون مرعي قد انتقل من ناحية الدرب إلى داخل المخبز، فيبتهج به العمال.

ويتزايد سرور الحاج حنفي باشتغال مرعي في المخبز، حين يكتشف أنه يعمل مثلما تعمل الدابة عملاً متواصلاً، يعجز عن القيام به العمال الآخرون، فهو يحمل من الألواح الخشبية التي يرصّون فوقها الأرغفة، ضعف ما يقوى على أن يحمله غيره، فلا يحس بالتعب، ولو أن العرق يتصبب منه، ولكنه يروح تحت حمله الثقيل يغني غنوته الوحيدة «آه يا عزيز عيني».

وسارت حياة مرعي على هذا المنوال، رتيبة كادحة راضية، يصحو قبيل الفجر، ويظل يعمل حتى يهبط الليل، فيرتمي في ركن من أركان المخبز، ويستغرق في النوم، حتى يفيق، ليستأنف اليوم الجديد، ويملؤه بغنوته التي يحبها، وبصوته الذي كأنه يتفصد من كل موضع في جسده، وبارتياحه إلى أنه يأكل.. ويغني.. وينام.

ولم يكن يحز في نفس الأبله شيء، غير التفاف الصبية حوله في الدرب ومشاكستهم له.

وكان يعجب، لماذا يعاكسه هؤلاء؟ ويتألم كلما حاول أن يقلده واحد منهم، فيغني على طريقته «آه يا عزيز

عيني».

لذلك راح مرعي يتجنّب الاحتكاك بأهل الحارة، ويتحين فرصة الليل ليظل يغني فيه كما يهوى، دون أن يقلّده مقلد، ودون أن يهزأ به مخلوق.

ولكن مرعي حين استطاع أن ينعزل عن الناس، لم يقوَ على أن يتجنب التردد على منزل الست بهية، فقد تعوّد أن يحمل إليها الخبز كل صباح، وأن يرتاح لابتسامتها الحلوة، ولرؤية وجهها الأبيض، وشعرها الذهبي بل لقد كانت تدفعه رغبته لمشاهدتها، إلى أن ينسلّ من المخبز قبل الظهر ليطرق بابها، ويسألها في ذلّة، أن يقوم بقضاء حاجاتها من السوق.

وكانت الست بهية تبتسم، وتكلفه الذهاب إلى البقال، وبائع الخضر، والقصاب، فيطيع الأبله ما تأمره به، ويهرول مسحورًا إلى كل مكان، ويعود مسحورًا إليها، وهو يحمل الحاجات، ويتدحرج رأسه إلى اليمين ثم إلى اليسار حين تعلق عينه بعينها، وينتزع الألفاظ أمامها، ليقول في مسكنة: أمسح البلاط؟

وتشير إليه بالدخول، فيمسح البلاط، ويغسل الأبواب، ويرتب الأثاث، ويتفانى في القيام بكل الأعمال المنزلية.

وكانت الست بهية تحمد الله الذي ساق إليها هذا الأبله؛ يريحها من عناء العمل المنزلي، ويرفض أن يقبل منها قرشًا تعطيه له بعد كل هذه المعاونة.

وتكرر غياب مرعي عن المخبز في ساعات النهار، وعلم الحاج حنفي أن مرعي يتردد على بيت من بيوت

الحارة، ويقضي فيه هذه الساعات، فيمسح ويغسل، ويخدم أهل الدار.

وقد كان مرعي ينسى أنه مرتبط بالمخبز، ويجد لذّة كُبرى في أن يظل مع الست بهية، وفي أن يطيع أوامرها، ويخلص في تنفيذ كل ما تشير به.

وكانت الست بهية تعجب من صبره الشديد على العمل، وتلقّبه بالثور، لأنه لا يحس بالتعب.

ويحاول الحاج حنفي سُدى أن يصرف الأبله عن التردد على منزل الست بهية، فيزجره تارة، ويهدده تارة أخرى بأن يطرده.

كل ذلك ومرعي لا يدور في نفسه شيء غير مقلتيّ الست بهية، ولا يطن في أذنه شيء غير صوت الست بهية، ولا يتمنّى شيئًا غير أن يخدم الست بهية.

وقد أخذ الأبله يُسرف في الغناء كل ليلة عن الليلة السابقة، ويتلوّى لحن الغنوة في فمه عريضًا حزينًا، وهو يصيح: «آ.. آ..ه.. يا.. عز.. يز.. عيـ.. ني»، فيهب الجيران من النوم ليرغموه على السكوت، ولكنه لا يفعل، وإنما ينفجر باكيًا، ويعوي عواءً، ورأسه يتدحرج على كتفيه إلى اليمين ثم إلى اليسار، وعيناه غريقتان في الدموع.

وجاء الحاج حنفي ذات ليلة إلى المخبز، فوجد الأبله، يملأ الدرب عواؤه المتقطع، ويزعج النائمين غناؤه الباكي، فحاول الرجل أن يسكته دون جدوى.

وقد ضاقت نفس الحاج حنفي بالغيظ، فهوى على

وجه الأبله بضربة، وحينئذ هب مرعي من جلسته محموم النفس، وانطلق من أمامه هائمًا كالدابة المذعورة، فيدفع صدره إلى الأمام، ويتمايل عنقه، وتترنح ذراعاه، وقد تعلقت عيناه بالسماء الداكنة.

وبلغ الأبله عتبة الدار، دار الست بهية، فارتمى أمامها حتى أطل الصباح، وكان أجمل صباح شهدت نوره مقلتاه، إذ استيقظ على صوت الست بهية التي كانت تنادي بائع الفول من النافذة.

وحينئذ انتفض مرعي من رقدته، وراح يجري وراء بائع الفول، حتى عاد به إلى البيت.

وصعد إلى المنزل، وطرق الباب، فخرجت إليه الست بهية، وأعطته طبقًا كي يملأه بالفول من البائع، وهبط إلى الشارع تكاد ترقص كل خلية في بدنه من شدة الفرح، ثم صعد بالطبق، وتدلت شفته السُفلى وارتعشت، وهو يقول لها في مشقة بادية:

- أشتغل هنا؟

وكانت الست بهية تتمنى أن يسوق الله إليها خادمًا، مثل مرعي، أبله قويًا، مطيعًا لا يريد من الدنيا غير اللقمة والمأوى، فهرولت إلى زوجها إبراهيم أفندي بالداخل، وقالت له:

- الأبله يريد أن يشتغل هنا.

وقال إبراهيم أفندي:

- وهل ترك المخبز؟ إنه حيوان مطيع.

قالت:

- وهذه فرصة ذهبية، فكم تمنيت خادمًا مثله!

ومنذ ذلك اليوم، راح الأبله يعمل في منزل إبراهيم أفندي الباشكاتب، كما يلقبه أهل الحارة، وفي منزل الست بهية، كما كان يحلم مرعي ويتمنى.

لم يبتسم مرعي مرة واحدة بعد مغادرته المستشفى، إلا أمام الست بهية، بل إنه لم يشعر بالسرور إلا في منزلها.

ولم يكن يعرف ما الذي يجعله مسرورًا سعيدًا إذا هي نادته، ولا يسأل نفسه عن السر في ذلك.

ولم يكن يعرف أيضًا، لماذا تسري في أوصاله قشعريرة هادئة، حين كانت الست بهية تنظر إليه، فتنفرج شفتاه، وتضيق عيناه، وتنكمش جبهته، ويترنح رأسه، ويهمهم ويغمغم، ويدمدم، ثم لا يقتنص كلمة، ولا ينتزع حرفًا، وإنما يمضي مرتبكًا إلى المطبخ.

الست بهية في نحو الخامسة والعشرين من عمرها، واسعة المقلتين، ذهبية الشعر، باهرة العود، بيضاء الوجه، حلوة التقاطيع.

وقد كان الأبله إذا أغمض عينيه، يشاهد صورتها في داخله واضحة وضّاءة ساحرة.

وكم حاول أن ينام في كثير من الليالي، ولكن صورة سيده كانت تطرد النوم طردًا من عينيه، وعن خاطره، وعن المكان الذي يأوى إليه.

لذلك، كان إذا غفا أهل البيت، يدخل إلى الشرفة، وينظر إلى السماء ويغني في صوت خفيض، «آه يا

عزيز عيني» ويظل يبكي، ولا يعرف لماذا! حتى يرهقه الشجن، فينكفئ على الأرض، يطحنه الشوق المجهول.

إنه لا يعلم ماذا يريد، ولكنه كان يحس حين تدخل الست بهية إلى حجرة نومها، أن سكينًا توشك أن تفصل عنقه عن جسمه، فيأخذ في التنقل من المطبخ إلى الشرفة التي ينام فيها، ومن الشرفة إلى المطبخ، وهو يئن أنينًا مكتومًا، تفيض به مقلتاه بحبات الدمع السخين.

لذلك كانت سعادته بالنهار لا تعدلها سعادة، وفرحته به لا توازيها فرحة، ففي النهار يغادر إبراهيم أفندي المنزل، ويظل مرعي مع الست بهية يحدثها، وينفذ أوامرها، وينظر إليها ويطيل النظر كما يشاء، حتى إذا فرغا من شؤون البيت، دعت هي جارتها الست فريدة وراحت تطلب أمامها أن يغني مرعي، فيلبّي طلبها سعيدًا، ويستمر في الغناء والسيدتان تضحكان ضحكًا عاليًا متواصلاً.

ثم يلف الأبله حول خصره حزامًا من القماش، ويرقص، والسيدتان وأطفالهما، يصفقون، ويهللون، ويضحكون.

إن فرحته لم تكن توصف في ذلك الوقت، وارتياحه لم يكن يُقدّر، وهو يغني «آه يا عزيز عيني»، ثم يأخذ في الرقص، وعيناه لا تُنقلان عن وجه الست بهية، بل تنسكب منهما كل معاني المسكنة، والصفاء والتوسل.

ويتعالى التصفيق، ويرتفع التهليل، وترن الضحكات،

ويستطيع وهو مُلقى على الأرض يئن من صدمة قدميه، أن يميز ضحكة الست بهية من بين الضحكات المرتفعة، فيبتسم سرورًا، وينسى ألم قدميه، ويهب من سقطته، ليغني ويرقص من جديد، وهو يتمنى ألا يعود إبراهيم أفندي إلى المنزل أبدًا، ليظل يغني ويرقص، ثم يسقط على الأرض، فتضحك الست بهية.

وكان حزنه يشتد في نفسه اشتدادًا، حين تنفضّ هذه الحلقة من النساء والأطفال، وتخف الست بهية إلى حجرتها، أو إلى خارج البيت.

وقد حاول سدى أن يعرف لماذا لا يطيق الابتعاد عن الست!

وكان في كثير من الأحيان يمتنع عن العمل، ويغالي في عناده، ولا يعرف أي شيء يدفعه إلى هذا، ولا أي شيء يجعل الدنيا حالكة في ناظريه، ثقيلة عليه، لا يطيق معها أن يكلمه إنسان، إلا إذا كان المتكلم هو الست بهية!

عندئذ، كان يتحول عبوسه فرحًا، وتجهمه ابتسامًا!

وقد باغتته نوبة من هذه النوبات، فألقت الست بهية في وجهه بعصا قصيرة، استعذب أن تصيبه من يديها!

ومنذ تلك اللحظة، أصبح يتمنى أن تضربه الست بهية، حتى دفعه هذا التمني إلى أن يخالفها فيما تأمر به، ثم يتعمد أن يأتي إليها، ويمط عنقه أمامه، ويقول متضرعًا: اضربيني.. اضربيني!

وصفعته ذات مرة على وجهه، فارتفع صوته باكيًا، ثم

أحس راحة لم يشعر بمثلها من قبل، وخف بعد ذلك إلى عمله.

وعرفت الست بهية أنها يجب أن تضربه، فأخذت تصفعه كلما أهمل عملاً، أو خالف أمرًا، فيسعد هو بذلك، ويرتاح.

وكان الأبله في الأيام الأخيرة يحب البكاء حبًا لا يعادله غير بغضه لإبراهيم أفندي، الذي تُذكّره طلعته بمستنقع لا يعرف أين شاهده!

ولم يكن يجلب بعض الراحة إلى نفسه في الليل، غير دمعه الذريف مع غنوته الوحيدة، حين يتمثل أن الست بهية قد تسللت من غرفتها، وجاءت إليه في الظلام، وابتسمت، وطبعت قُبلة على شفتيه، قبلة طويلة، ينام بعدها مرتاحًا!

وذات ليلة، عاد إبراهيم أفندي مبكرًا من المقهى إلى المنزل، فتناول العشاء مع زوجته، وظلا يسمران مع طفليهما، ثم خف كل منهم إلى سريره!

وكانت نفس الأبله، تضيق بما فيها من كراهية لإبراهيم أفندي، وكان ينظر إليه طول الليل نظرات تقدح بالشرر، وقد أحس حين دخل إبراهيم والست بهية إلى غرفة نومهما أنه سيختنق، فراح يلطم خديه في عنف عجيب، ثم تسلل إلى الشرفة، وانفجر في البكاء.

وتساءل بينه وبين نفسه، وهو يعلق بصره بالنجوم:

- لماذا لا تضرب الست بهية إبراهيم أفندي؟ ولماذا

تتركني الست بهية وحيدًا أذرف الدمع؟ آه لو تجيء الست بهية إلى الشرفة وتضربني ضربًا حتى أموت!

وفي تلك اللحظة، ارتفع صراخ الست بهيئة من داخل البيت، يشق قلب الأبله.. ويمزقه!

وأنصت مرعي لحظة، أيقن بعدها أن الست بهية، هي التي تصرخ ذلك الصراخ الأليم، مستنجدة، فاقشعر بدنه، وأحس كأن شعره أصبح شوكًا في رأسه، واندفع إلى الداخل، واتجه إلى غرفة النوم، وكان الصراخ يشتد، فينخلع قلبه، ويشعر بالنار تتصاعد من نفسه. وراح يدفع الباب بكتفه حتى انكسر، فرأى إبراهيم أفندي يضرب الست بهية وهي مرتمية على الأرض، ممزقة الثياب، دامية الخد.

وأحس الأبله أنه تحول إلى حقد خالص، فانهال على إبراهيم أفندي ضربًا موجعًا، سقط له الرجل على الأرض، وراح يستغيث بالجيران.

وتهب الست بهية، وتصيح في وجه مرعي:

- كفى.. كفى.. أيها الوحش.. اتركه أيها الوحش!

ويحس الأبله أن يده شُلّت أمام أمر الست بهية، وينظر إليها ويتهدج صوته قائلاً وهو يبكي:

- حا.. ضر.. يا.. ست.. بهية.

ولكن الجيران يتكاثرون داخل المنزل، ويعلمون ما جرى، وينهالون ضربًا على الأبله.

ويستطيع مرعي أن يفر من ذلك الزحام إلى الشرفة، فيخونه اندفاعه إليها، ويسقط منها إلى الأرض!

ويجتمع أهل الحارة على صوت سقوط الأبله، ويكتشفون أن ذراعه اليمنى قد كسرت!

وتصيح الست بهية في هلع:

- لقد كان يريد أن يقتل زوجي، هذا المجنون!

ويطلب الحاج حنفي عربة الإسعاف التي تحمل الأبله إلى المستشفى، ويمر شهر، فينقل فيه إبراهيم أفندي مع زوجته إلى منزل آخر في حي السيدة زينب، ويخرج بعده مرعي من قصر العيني بعد أن عالجوا ذراعه!

عاد الأبله إلى درب البزازرة، يدب كالسائمة طيلة النهار، وقد ألف سكان الدرب أن يروه كلما هبط الليل جالسًا أمام عتبة الدار التي كانت تقيم فيها الست بهية، وتعوّدوا أن يسمعوا صوته في جوف الظلام يغني في نبرات سائحة، والدمع يتساقط من مقلتيه «آه يا عزيز عيني».

وكان الأبله وهو في جلسته تلك، يطيل النظر إلى النجوم، ويتمثل أن الست بهية بوجهها الأبيض وشعرها الذهبي، قد جاءت إليه وابتسمت له، وطبعت قُبلة حارة على شفتيه المرتعشتين، فيغفو مرتاحًا على عتبة الباب.

*****

من مجموعة «أمينة وقصص أخرى» الكتاب الماسي.

النـــوم

نزلتُ من سابع دور فوق السطح إلى الشارع، وانتهى الأمر ولم تبق لي غرفة أنام فيها كالناس، فقد طردتني صاحبة البيت -ولها حق- وكان كلامها كالسم في بدني.. فأنا مدين لها بأجرة شهرين متأخرين، وكانت ساكنة ولم يغظها ويدفعها إلى طردي غير ما صنعت، وكنت معذورًا.

لقد رجعت آخر الليل إلى الحجرة، وكل رجل في جسمي كأنها -من شدة التعب- قالب حجر، وأردت أن أنام، كان في نفسي أن أضع رأسي وأشخر، واتخذت وسادتي من الطوبتين، وتمددت وارتميت على البلاط ببنطلوني وقميصي وصندلي، ولكن البرد كان شديدًا، وصوت الريح يتخبط في الحجرة، ولا شيء أفرشه تحت جسمي أو أتغطى به.

وكنت أرتعش، وألصق ركبتي ببطني، وأمد ذراعي فوق الجانب الظاهر من وجهي ورأسي.

وكانت تخرج من فمي همهمات مرتعدة لا أستطيع أن أمنعها.

وشعرت بحاجتي إلى الدفء، ووجدت أن النوم مستحيل، والبرد يأكلني، فقمت من رقدتي، وجاءتني فكرة، أن أجمع أي أشياء وأشعل فيها النار لأستدفئ، فأسرجت المصباح، ورحت أنظر في كل نواحي الغرفة نا أعلم أنه لا يوجد فيها شيء ينفع.

واصطدمت نظراتي بالجدران الخشب الأربعة، وتمنيت

لو كان عندي ورق جرائد قديم، وخطر لي وأنا أريد النوم ولا أقدر عليه من البرد، أن أكسر جزءًا من أحد الألواح الخشب التي تؤلف جدارًا من الحجرة.

وكان ذلك اللوح أمامي لا يلتقي طرفه بالسقف، كانت بينهما فجوة تسمح ليدي بأن تنفذ فيها وتكسر الجزء المطلوب للتدفئة، ولم أفكر فيما سيحدث بعد هذا العمل. كنت أولاً أريد أن أستدفئ لأنام، ودفقت بعض غاز المصباح على الخشب المكسور وأشعلت فيه النار، وخلعت صندلي، وممدت كفي فوق اللهب وقد اتسعت الفجوة بين طرف اللوح الخشب والسقف، وكان الهواء البارد يدخل منها كالرصاص.

وكنت وأنا أنظر في اللهب أمامي، أرثى لغباوتي الشديدة، وأتعجب كيف لم أفطن قبل تنفيذ الخطة إلى أن الفجوة ستتسع وأنني سأظل عرضة لرصاص الهواء الداخل منها، وشعرت بالدفء نوعًا ما، ولكن النوم بقي مستحيلاً، وكنت ألم صدري من فتحة الجدار، وأتمنى أن يدخل بعضي في بعضي.

وأحسست أن رأسي ثقيل، وعينيّ مشدودتان من الداخل، وعظمي في جسمي كالمسامير.

النوم.. كيف أحصل على النوم؟

هه.. وهل حصلت على أي طعام؟ أي طعام؟!

وتذكرت أنني لم أتناول لقمة من الظهر، وأنني عاطل من شهرين ومدين للبقال الذي في ناصية الحارة، تذكرت أن حالتي كرب، ولم أنم.

وكانت أفكار تسرح بي في حاجات بعيدة، وتذهب بي إلى القرية، وتجيء إلى مصر، وتروح في ذكريات قديمة، وتتجه إلى آمال.

وقد انطفأت النار، وتكوّمت في ركن من الغرفة أنتظر الصبح، حتى طلع، وخرجت من الحجرة إلى السطح، وذهبت إلى مكان الحنفية، ووضعت رأسي تحتها وفتحت الماء.

كان جسمي كالثلج، والصبح ملآن بالندى، والهواء بارد يصفعني على وجهي، وقد طلعت المرأة صاحبة البيت، تحمل الطعام للكتاكيت في الكشك القائم إلى جوار غرفتي، وكنت أتحاشى اللقاء بها خوفًا من أن تطالبني بالأجرة المتأخرة، ولكنها حين رأتني قالت:

- صباح الخير.. ولم يكن في صوتها كراهية أو سخط.. ففرحت، وقلت لها:

- صباح النور.. تفضلي.

وفتحت المرأة الكشك، وراحت تنثر الطعام للكتاكيت، وانتهزت أنا فرصة انشغالها، ودخلت حجرتي وقعدت.

غير أني بعد دقائق، فوجئت بالمرأة تقتحم الباب، وتدير عينيها في الغرفة وقد امتلأ قلبي بالخوف حين قالت:

- إيه ده يا سي عقيل؟!

وأدركت أنها شاهدت الفجوة واللوح المكسور ورماد الخشب، ولم أتكلم.. وانفتحت هي في وجهي، وراحت تعايرني بأنني كل ما في الحجرة من أثاث، وبأنني

مدين لها ولا أدفع أجرة، وبأن المصيبة الكبيرة هي كسر الجدار وإشعال النار، وبأنها تخشى أني لو بقيت هنا وكررت نفس العمل، أن ينشب حريق فيأتي على البيت كله، ثم قالت وهي تكنسني بنظراتها:

- العوض على الله في الشهرين.. واتفضل مع السلامة.

ونزلت.. نزلت من سابع دور إلى الشارع.. وانتهى الأمر، ولم تبق لي غرفة أنام فيها كالناس.. هه.. وهل استطعت في تلك الحجرة أن أنام؟

وقفت عند باب البيت، ورحت أنظر إلى ناصية الحارة.

كنت أريد أن أطمئن إلى أن البقال لن يراني، وأنا أمرّ من أمامه، لأنه لن يتركني إذا رآني.

وكان من المستحيل أن أجد سكة تخرجني من تلك الحارة المسدودة غير تلك السكة التي توصلني إلى الناصية أولاً، حيث دكان البقال.

وقد خيّل إليّ أنه عرف مسألة طردي من الحجرة، ومسألة عدم وجود أي شيء لي في الغرفة إلا المصباح.. ولذلك فإنه لن يصدقني إذا قلت له: سأدفع الدين بعد أيام، لأنه واثق من أنني سأهرب ولن أرجع إلى الحارة أبدًا، ولكني تمهلت في التفكير، فوجدت غير ممكن أن يكون قد عرف ما جرى، لأنني مطرود الآن، وهو لم يكن معنا عندما قالت لي صاحبة البيت:

- تفضل.. مع السلامة.

وقلت لنفسي:

- يا ولد.. عيب الجبن.

ثم انطلقت في الحارة، وما كدت أقترب من الدكان، حتى جريت، وكنت أشعر كأن البقال رآني، وكأن نظراته تصيب ظهري كالحجارة.

وتعبت من الجري بعد قليل، كان صدري قد أصبح كالمنفاخ الملآن بالثقوب، فوقفت أسترد أنفاسي وأستند إلى حائط منزل.

وكان في رأسي دوار يلف، وكنت أحس كأن شيئًا كالنمل يحرك أقدامه على جبهتي، فوضعت عليها يدي أمسحها، فابتلت أناملي بعرق لزق.. والدنيا برد.

وأخذت أفكر إلى أين أتجه!

إني لم أتناول لقمة بعد غداء الأمس، والجوع يكاد يرميني على الأرض، ثم أن قلة النوم هدت حيلي.

كنت في شارع محمد علي، قريبًا من باب الخلق، فتذكرت عم سليمان، تذكرت أنه يشتغل كاتبًا في دكان بباب الخلق، وأنه من أهل قريتنا، فلماذا لا أذهب إليه وأطلب منه خمشة قروش؟ إن خمسة قروش كافية جدًا، فيمكن أن أشتري بها فطاري، والباقي ينفع.

ولم أتردد، لم يكن أمامي غير هذا الحل، فمشيت إلى باب الخلق، ولكنني عندما أصبحت قريبًا من الدكان، رجعت أشعر بحرج سرعان ما تغلبت عليه، ودخلت إلى المحل، وصافحت عم سليمان وطلبت منه المبلغ ووعدته بسداده.

كنت مرتبكًا، وقد لحظ عم سليمان ذلك الارتباك، فقال:

- يا ابني بسيطة.. المسألة بسيطة.

وأخرج الرجل الطيب خمسة قروش وأعطاها لي.

قلت: - كتر خيرك.. أنا أصلي...

قال: - ولا أصلك ولا فصلك.. يا ابني المسألة بسيطة.. مع السلامة يا عقيل.

ودخلت إلى أول مطعم فول في الميدان، وقعدت إلى أحد الكراسي، فشعرت بتعب الليل كله ينزل من جسمي إلى مفاصلي.

وجاء طبق الفول والملح والرغيف، فالتهمته، كنت كالذي يبلع الطعام دون مضغ.. وبقي الشاي والسيجارة.

وكان في أحد أزقة الميدان مقهى بلدي كثيرًا ما كنت أتردد عليه، فذهبت إلى هناك، وطلبت الشاي، ثم جلست على أحد الكراسي، ووضعت ذقني فوق ذراعي ونمت.

نمت قبل أن أشرب الشاي، وتركني صاحب المقهى أشخر حتى ما قبل الظهر بقليل ثم أيقظني، ولم أشبع من النوم، وكان في مفاصلي دق، وكان دماغي دائخًا.

وقمت إلى داخل المقهى وأدخلت رأسي تحت حنفية، وتركت الماء يندلق وقد انتعشت قليلاً وشربت الشاي، ودخّنت سيجارة ورحت أفكر في حالتي.

الظهر سيجيء، وسأشعر بالجوع، ومعي ما يكفي، فآكل فولاً، وأشرب شايًا، وأدخّن سيجارة، ويأتي العشاء.. فماذا أصنع؟ وكيف أحصل على طعام ولن يكون معي مليم؟ وأين سأنام؟ أين سأنام؟ هذه مشكلة.

وانسدّت الدنيا في وجهي، فخرجت من المقهى، ورحت أمشي، في الطريق وأنا أبحث في رأسي عن

مكان أعرفه لأنام فيه الليل.

ولم أجد قدامي غير عم سليمان، ولكني قلت لنفسي:

- يا ولد.. هل هذا كلام؟ لقد أخذت منه الفلوس، وأنت لا تعرف أين بيته، وربما يتأفف الرجل ويمل ويهرب منك، فاكتم الموضوع وابحث عن غيره، ومشيت أفكر ثاني مرة، فتذكرت عبد البر صاحبي من زمان، ولكني لا أعرف أين بيته أيضًا.

وأخيرًا قلت لنفسي:

- لما ييجي الليل يحلها الحلال.

وسرت وأنا أنظر في الأرض، حتى وصلت إلى العتبة الخضراء، فاتجهت إلى حديقة الأزبكية ودخلت من باب السينما، وقعدت على كرسي من الكراسي التي هناك.

وكان الناس يروحون ويجيؤون من أمامي وأنا لا أتحرك، كنت أغطس داخل نفسي، وأفتش عن طريقة تخلصني من البطالة.

عمري عشرون سنة، وكنت أشتغل في محل يبيع أجهزة للراديو بشبرا، وأجيد القراءة والكتابة، وقد اتهمني عبد الغفار صاحب المحل بأنني سرقت ريالاً، واستغنى عني ظلمًا، فالحق أني لم أسرق الريال، وقد تأكدت أنه أراد أن يوفر أجرتي، فاختلق هذه الكذبة وعمل نفسه رجلاً، وزعق في وجهي وقال:

- امشي من غير كلمة واحدة.. طريق السلامة يا لص.

وكان عبد الغفار يعطيني خمسة عشر قرشًا كل يوم، وأنا أقوم عنه بالحساب وكل ما يطلب عمله مني، كنت

أشتغل عنده عاملاً وكاتبًا وساعيًا بخمسة عشر قرشًا، ومع ذلك فقد طردني بتهمة السرقة، وعلمت بعدما تركت المحل، أنه استغنى عن خدمتي كي يوظف بدلاً مني ولدًا هو أخو امرأة فاجرة أحبها المجرم، كانت تأتي إلى المحل بالأبيض والأحمر وشعرها مكوي، فيقوم البغل من مكانه ويقبل يدها كأنه ابن باريس.

إيه! وما فائدة الكلام؟

لقد جرى ما جرى.. وأنا عاطل من شهرين وبدون فلوس.

وكنت كثيرًا ما أفكر في الرجوع إلى بلدي، ولكن أعدل عن هذا التفكير، لأنه ليس لي أحد بالبلد، لقد مات أبي، وماتت أمي هي الأخرى، وكان أقاربي فقراء جدًا، وكنت أعمل عند العمدة كاتبًا، وكان يعطيني كل سنة عدة أرادب من الأرز والقمح والذرة، ولكنه استغنى عني ولم يعد لي عيش هناك.

فقلت يا ولد إلى مصر.. وأتيت إلى عبد الغفار فهو من بلدنا، وحدث ما حدث.

طردني قليل الأصل بعدما اشتغلت عنده سنة بحالها، لأنه عشق المرأة الحلوة، وأحب أن يرضيها ويوظف أخاها.

ولم أكل.. ولم أمل.. عرضت نفسي على محلات كثيرة، وذكرت أني أعرف القراءة والكتابة.. وكانوا مع ذلك يرفضون.

لقد هربت من الفقر في بلدنا، وجئت إلى مصر،

فوقعت في الفقر مرة ثانية.

طال جلوسي في مدخل الأزبكية، وكان في نفسي أن أنام، وتمنيت لو استطعت أن أتمدد على الكرسي، ولكن منعني الخجل من الناس الذين يجيؤون ويروحون، ومنعني الخوف من حارس الباب، وهذا هو الأهم.

وكنت أتثاءب، وعيناي تدمعان من التعب، وأحس أن جسمي كله تراب، وجاءت لي فكرة انبسطت منها.

من بلدنا واحد محترم ساكن في الروضة اسمه مرسي بيه، وكان قد أتى إلى محل عبد الغفار، واشترى راديو، ووصلته إلى البيت.

فلماذا لا أتوجه إلى مرسي بيه هذا، وأشرح له حالتي، وأطلب منه أن يساعدني في إيجاد عمل لي؟!

إنه بيه، ومحترم جدًا، وموظف عظيم في الحكومة، وهو قريب عائلة الزيني أيضًا، وكانت أمي تقول إن أولاد الزيني أقاربنا من بعيد.

على كل حال، أنا لا أطلب منه إحسانًا، أنا أريد أن أعمل بذراعي، فلا داعي لأن أقول له:

- أنت قريب الزيني وعائلته قريبتنا، فهل ضروري أكون قريب مرسي بيه من طرف قرابة بعيدة، كي يبحث لي عن صاحب محل أفيده بعرقي وتعبي؟!

وسألته إذا كان كلامه أكيدًا، فقال وهو يخفف همي بابتسامته:

الله يلعن.. الظروف!

هل هذه أصول؟!

هل هذه عيشة؟!

إني لا أعلم أين سأنام!

لا أعلم كيف أحصل على الطعام!

أنا عاطل.. متشرد.. صعلوك.

وكنت أشتغل عند العمدة واستغنى عني.. وكنت أشتغل عند عبد الغفار وطردني، ولم أصنع شيئًا أستحق من أجله أن أتعطل، وأتشرد، وأتصعلك، وأجوع، وأتمنى أن ألقى مكانًا أشخر فيه ساعتين. أقول لك يا ولد.. اذهب إلى مرسي بيه.. ربما تفرج على يديه.

وقمت وفي مفاصلي دق، ودماغي دائخ، وكانت الساعة قد أصبحت الثانية بعد الظهر، وحسبت الفلوس، فوجدت أن الباقي معي قرش صاغ واحد.. لقد كنت أحسب معي فلوسًا تكفي لشراء سندوتش ولشرب الشاي والسيجارة، واحترت.. هل أشتري بالقرش حاجة آكلها؟ أم أدفعه ثمن تذكرة الترام؟ إنني جوعان وممصوص من التعب، وقد رأيت عربات الترام تجري هناك، وفضّلت أن أركب بالقرش، وليكن ما يكون، كان الترام مزدحمًا جدًا فقفزت إلى السلم، وكان الكمساري في نهاية العربة من الداخل، فخطر لي ألا أدفع ثمن الركوب، وفرحت بهذا الخاطر، ولم تنتقل عيناي عن الكمساري أبدًا، وكنت أتأهب للقفز من الترام إلى الطريق كلما وجدت الكمساري يزحف قليلاً من مكانه إلى ناحيتي.

وقد ظللت معلقًا في عمود الباب الخارجي، حتى

وصل الترام إلى ميدان التحرير، وكان الكمساري قد بلغ مكاني، وقال:

-تذاكر.

وتصنّعت أني لم أسمع، وكرر هو قوله:

- تذاكر يا أفندي، فنظرت إليه وقلت: أنا نازل.

وكان الترام وقف عند المحطة، فهبطت منه مسرعًا وشتائم الكمساري تلاحقني.. مشيت من الميدان إلى الروضة، ووصلت بيت مرسي بيه، وطرقت الباب، وسألت عن البيه، فخرج لي بنفسه، وقال:

-أهلاً وسهلاً.. خير إن شاء الله! تفضل.

ودخلت.. كان منظر المفروشات جميلاً جدًا، فتمنيت أن يكون لي بيت، وشعرت أن الإنسان الصحيح هو الذي له بيت.

وقعدت على الكرسي، وقد أغرتني الجلسة أن أنام.. وسألت نفسي لماذا لا يكون لي ولو كرسي واحد أنام فيه؟ ليتني كنت مثل هذه القطة التي تنام على الوسادة.

وكان مرسي بيه تركني في حجرة الاستقبال وحدي، فنظرت إلى القطة الممدودة على الوسادة في وسط الغرفة، ومددت إليها يدي تتحسسها، وأنا أحسدها.. كان شعر جسمها ينقل الدفء إلى أصابعي، وكان تثاؤبها يعديني.

وجاء البيه، فقمت من مكاني أحترمه..

فقال: اتفضل اقعد،

فقلت: العفو يا بيه.

قال: خير إن شاء الله.

وشرحت للبيه حكايتي، وكيف استغنى عني العمدة، فجئت إلى عبد الغفار واشتغلت عنده، وذكرت أني أجيد القراءة والكتابة، وأني في العشرين، وأطلب أي عمل، ووعدته بأني سأبيّض وجهه في أي مكان.

ولحظت أن البيه لما جلس قدامي أحمر اللون، ورقبته سمينة، وعيناه مثل الرصاص، وقد شعرت وأنا أنظر إليه بأن الراحة التي أنا محروم منها، حاجة عظيمة جدًا، وبأن الجلباب الساوكبيس الذي يلبسه، أمل من آمالي.

وقلت لنفسي:

- هل معقول أننا كلنا أولاد حواء وآدم؟ طيب.. لماذا هو سمين وأحمر وأنا هزيل وأصفر؟ لماذا هو صحته قوية، وأنا مهدود العافية؟ لماذا هو يشتغل في وظيفة مريحة، وأنا لا أجد مكانًا أشتغل فيه بعمل غير مريح؟ لماذا هو ينام الليل، وأنا لا ألقى بيتًا أو كوخًا أرتمي فيه؟ وجاء في نفسي أن أقول له، أنا لم أنم يا بيه والقطة نائمة، غير أنه قطع فكري وقال: -طيب.

وكانت روحي معلقة في حلقي، وأذني تطقطق للكلام الذي سيخرج من فمه.

وسكت حضرته قليلاً، ثم راح يذكر لي أن المسألة ليست مسألتي وحدي فالناس كثير، لا يجدون أعمالاً ولا طعامًا، ولا مساكن.

ثم تنهد حضرته، وقال:

- الذين معهم الشهادات الجامعية لا يجدون أعمالاً، على كل حال سأبحث لك عن أي عمل بكل جهدي.

وتحرك في الكرسي، ففهمت أنه يلمح لي بالقيام، وقلت له:

-كتر خيرك يا بيه، وصافحته ثم خرجت.

لما نزلت إلى الطريق، شممت رائحة الشارع، وقد كانت للرائحة في بيت البيه رائحة ثانية، والحق أني كنت في شدة الغم، وفي شدة الحيرة، وكانت يدي في جيبي تلعب بالقرش الصاغ وهو كل ثروتي.

ومررت على بائع سجائر، ولكن لم أجرؤ على دفع القرش، لأني جوعان، ولأني أريد أن أنام، وقلت لنفسي:

-وهل ينفع القرش الصاغ في شيء؟! إنه يكفي ثمن سندوتش من الفول المدمس، ولكنه لا يكفي أجرة للمبيت ولو على الرصيف.

وجاء في دماغي عم سليمان مرة ثانية فجأة.

وقلت:

-وماذا يحدث لو طلبت مساعدته لك في إيجاد عمل؟ ربما يعرف هو أصحاب محلات محتاجين إلى عامل أو ساعي أو كاتب حسابات أو أي شيء.. ورجع الأمل في نفسي، ومشيت بسرعة، وكنت وصلت إلى شارع قصر العيني، ونفذت من هناك إلى الحلمية، وإلى باب الخلق.

ودخلت الدكان، فاستغرب الرجل لما رآني.

وحكيت الحكاية لعم سليمان، فقال لي:

- اقعد يا ابني.

ثم قعد أمامي وأخذ يتذكر أسماء الناس الذين يعرفهم، ثم قال:

-اسمع يا عقيل.. ضروري هنلقالك أي عمل.. تعالى الصبح.

وسألته إذا كان كلامه أكيدًا، فقال وهو يخفف همي بابتسامته الطيبة الحلوة:

-تعالى الصبح.. يا ابني بسيطة.. المسألة بسيطة.

وكنت أتمنى أن أطلب منه تَركي في المحل طول الليل لأنام، ولكني رأيت أن الدكان ملك غيره، فلماذا الإحراج؟ وكنت أتمنى أن أطلب منه خمسة قروش ثانية، ولكني خجلت، لأنه أعطاني ما يقدر عليه، وشكرت الرجل الطيب، ومشيت من الدكان، وقد صممت أن أطلب من عم سليمان فلوسًا، لما يطلع الصبح، إذا طلع.

ولم أجد في عيني غير المقهى المعروف بالميدان، المقهى الذي نمت فيه على الكرسي إلى ما قبل الظهر، فاشتريت السندوتش بالقرش الصاغ، وذهبت إلى هناك.

وجاء الجرسون فقلت له:

-أنا شربت الشاي عندكم الصبح.

وكان المقهى مزدحمًا بالناس، فمشى الجرسون ساكتا، وظللت قاعدًا حتى نصف الليل، وفرغ المكان من الناس، وقام صاحب المقهى بغلق الأبواب فشعرت بالكسوف، وقمت وأنا لا أعرف أين أروح؟ كان الجوع يلوي بطني، والصداع يدق في رأسي، ورجلاي كأنهما

عكازتان أجرّهما جرًّا، والبرد يشتد.

وقد رأيت في الميدان جماعة من الأفندية الذين يقعدون عند الفكهاني، وكانوا يأكلون الفواكه، وشممت رائحة اللحم المشوي خارجة من عربة بائع السجق، وكانت في الميدان عربة الحلويات وهي منورة والحلويات في داخلها أصناف وألوان.. وكنت أرتعش من البرد والجوع والتعب، حتى وجدت نفسي في شارع الأزهر، ووقعت عيني على الرصيف، فأردت أن أرتمي فوقه، وأسند ظهري إلى الحائط، ولكني سمعت العسكري يقول:

- إحم.. فخفت، وجعلت أسير في الطريق، حتى انتهيت إلى ميدان الأزهر وقررت أن أنام في مسجد الحسين.

وفرحت جدًا بهذا التفكير الموفق، ولكني وجدت باب المسجد مغلقًا وسألت أحد المارة لماذا الباب مغلق؟ فقال لي:

- يُفتح قبل صلاة الفجر.

وقعدت على الرصيف جوار الباب، وأسندت ظهري إلى الحائط، وشعرت أنني سأموت من الكرب، وكان بدني مكسرًا كله، وصدري غير قادر على التنفس، وكانت الأرض باردة، والحائط كذلك، والرعشة لا تتركني أبدًا.

ولم أستطع أن أنام في هذه الحالة الصعبة، فقمت من مكاني وفكرت أن أجري في السكة كي يحمى دمي فأحس بالدفء، ولكن أنفاسي كانت مقطوعة، فقلت:

- طيب أمشي.

ورحت أتخبط في السكة، وكان منظر العساكر يجعلني أصحو وأسرع ووصلت إلى ما قبل العتبة الخضراء، في شارع الأزهر، ورأيت مرحاضًا عموميًا أمام سوق الخضر، فخطر لي أن أصبّ على دماغي الماء، ونظرت إلى ظهر السوق، فلقيت عربة من العربات الخشب التي يضع عليها الباعة أشياءهم ويجرّونها في الشوارع.

وسررت جدًا بمنظر العربة، وزاد سروري لما وجدت أنها مفروشة بالقش.

قلت:

- أخيرًا وجدت المبيت.

وكانت الظلمة شديدة والبرد قاسيًا، وقد وفقت إلى القش أنثره على جسمي وأستدفئ، وما كدت أرتمي فوق العربة حتى سمعت صوتًا يقول: -آي.

قلت:- مين؟

ورأيت صبيًا يقوم من قلب العربة ويقول: -عاوز إيه يا عم؟

قلت: -عاوز أنام.. أنام!

قال الصبي وهو يسعل ويلقي برأسه إلى مكانه الأول:

-نام، نام يا سيدي. العربية واسعة.. لازم تعمل هيصة عشان ييجي العسكري يطردنا؟!

وشعرت بأن هذا الصبي قريبي.

وارتاح قلبي واسترخى جسمي.

وتمددت، ونثرت بعض القش على جسمي، ورحت

أشخر.

*****

من مجموعة «أمينة وقصص أخرى» الكتاب الماسي.

قال درويش هامسًا:

- تعالي.. الساعة واحدة.. رايحة فين دلوقت؟

ونظرت سنيّة إلى مصدر الصوت، فرأت شابًا في العشرين يرتدي جلبابًا وطاقية.

وكان ميدان السيدة زينب خاليًا إلا من عربات متناثرة في أركانه، مضاءة رؤوسها بالمصابيح الزيتية، فهذا يبيع الحلويات، والثاني يعرض طعامًا، والثالث للكازوزة.

وكانت سنية لا تعلم إلى أين تذهب، وقد عقدت النية على السير في الشوارع، أو الارتماء إلى جانب حائط، حتى يبزُغ الفجر. ذلك لأنها لم توفق -كسائر الليالي الماضية- إلى رجل يستأجر فخذيها حتى الصباح.

وعاود درويش همسه في أذنيها وهما يتمشيان: ما تيجي معايا.. أنا ساكن هنا.

ورأت سنية أن تستجيب إلى دعوة الشاب، ولو أنه لم يكن يرتدي بدلة ولا طربوشًا، فنظرت إلى وجهه، وابتسمت ابتسامة العمل.

وعندئذ، التصق بها درويش، وجذب ذراعها بيده، وقال في صوت منخفض آمر:

- تعالي من هنا.

ومشى بها في حارة مظلمة.

قالت: - البيت بعيد؟

قال: - أبدًا.. أبدًا.

وظهر تحت مصباح في الزقاق، شبح أسود، فقالت

سنية لدرويش:

- العسكري!

قال: - متخافيش.

وسارا من زقاق إلى زقاق، والظلمة فوقهما، والسكينة شاملة.

وكانت سنية ترتدي ثوبًا مُرقّعًا من الحرير، وجوربًا طويلاً خشنًا أسود، وحذاء متآكل الحد، وقد لطّخت وجهها وشفتيها بلون أحمر قانٍ، وسوّدت حاجبيها وجفنيها بكحل ثقيل.

وكانت تحمل في يدها حقيبة متسخة من القماش، وتُسرع الخطى، فيقول درويش:

- على مهلِك شوية.. على مهلك يا باشا.

وتقول هي: - لسه بعيد؟

ويقول درويش: - خلاص قرّبنا.

وجعل الشاب يدخل بها إلى زقاق، ويخرج من زقاق، حتى وصلا آخر الأمر إلى الخلاء.

ووقفت سنية، وقالت: - فين البيت؟!

ونظر درويش إليها نظرة كانت أبلغ من قوله:

- وهل أنا أقيم في بيت مثل البيوت؟

وجذب الشاب ذراع المرأة الصغيرة، ومضى بها في الخلاء.

كان الفضاء ممتدًا، والليل رهيبًا، ولا صوت غير وقع أقدامهما، وتردد أنفاسهما.

كانت الأرض غير ممهدة، مليئة بالأحجار والعظام

والزجاج المتناثر وأكوام القمامة، صاعدة، هابطة، غائرة، منبسطة.

قالت سنية: - أنا خايفة.

وضحك درويش. قهقه. ورنّت قهقهته رنينًا غريبًا في السكون، خُيّل إلى المرأة الصغيرة أنه جسمٌ مادي غير معلوم يسقط على رأسها.

ولقد كان يود الشاب أن يقول لها:

- تخافين يا حمامة؟ وإذن فإني بطل.. وماذا يمكن أن تشعري به، إذا رافقتني وأنا بصحبة والدي، أقتحم المقابر، وأمزق الأكفان، وأخلع الأضراس الذهب من أفواه الموتى؟

ولكنه اكتفى بالقهقهة، وأفرغ فيها هذا الخاطر.

وكان بود المرأة الصغيرة أن تسأله عما يُضحكه، ولكنها لم تنبس بكلمة، وقد شعرت بأن خوفها يتزايد، ويتكوّم على قلبها كالسحاب الكثيف، وتكاد تختنق به روحها اختناقًا.

وانقضت مدة وهما يمشيان، ويصعدان أكوامًا، ويهبطان من تلال إلى أرض، وأخيرًا قالت سنية وكان صوتها مذعورًا: - وبعدين يا سي...؟

قال درويش: - سي درويش يا باشا. إنتي لسه خايفة؟ بصي كده!

وأشار الشاب بيده إلى كوخ قريب يبدو من بعيد كأنه كوم كبير من القاذورات ارتفع على وجه الأرض.

ونظرت المرأة الصغيرة المضطربة إلى حيث أشار

درويش، فرأت ذلك الكوخ وقالت: - البيت؟

وهز درويش رأسه، فتنفست سنية الصعداء، وقالت: - الحمد لله!

كانت جدران الكوخ عبارة عن مجموعة من الصفائح الفارغة يعلوها الصدأ، وُضع بعضها فوق البعض، فارتفعت ارتفاعًا معقولاً، والسقف كان من الخيش. أما الباب، فإنه لا باب ولا شيء أبدًا، فقط فتحة طول الحائط.

وقد كان داخل الكوخ شيخ مستيقظ جالس على الأرض.

وكان في جانب من الكوخ، مصباح زيتي بلا زجاج يلم نوره ويقوّيه، مصباح من الصفيح يخرج من رأسه لسانٌ من القماش مشتعل.

قال الشيخ وقد رأى ولده آتيًا ومعه امرأة: - من يا درويش؟

قال درويش: - لا أعرف اسمها.

قالت المرأة الصغيرة: - سنية.

وسكت الشيخ لحظة، ثم أضاف: - زي البنت القديمة؟

قال درويش: - نجرّبها.

قالت سنية: - تجرّبني؟!

قال الشيخ: - اقعدي.. تعالي هنا.

وكان الرجل العجوز يرتدي سروالاً طويلاً فقط، ولا شيء يستر باقي لحمه. وكانت لحيته نامية، وصوته يتدافع كالأحجار المتكسّرة.

وجلست المرأة الصغيرة على حصير إلى جانب الرجل العجوز، الذي راح يمعن النظر في وجهها.

كانت حلوة. عيناها فيهما نورٌ وليل. جسمها مثل البطة. وخصرها نحيل. وردفاها ثقيلان. وفخذاها مثل التلال.

وقد شعر العجوز، لأول مرة منذ سنين، أن شيئًا في داخله يهتز ويرتجف.

قال لولده: - من أين جئت بها؟

قال درويش وهو يجلس أمام أبيه: - من السيدة.. من قلب الميدان.

قال الوالد وهو يربت كتف سنية في رفق وحنان:

- ستعيشين معنا يا سنية.

قال درويش: - وستكونين مسرورة.

قالت سنية: - وماذا أعمل؟

قال العجوز: - إننى أصنع أقفاصًا ويبيعها ولدي.

قال درويش: - نحن نكسب ونأكل وننام بعيدًا عن المدينة وأهلها.

قال العجوز: - ونعيش كما يعيش أحسن الناس.

ولو علم العجوز، لقال: ونعيش كالحيوانات، أو كالكلاب الضالة الهائمة تبحث في القاذورات عن طعام أو عظام!

وكان درويش قد ملأ عينيه بسنية، وقامت بنفسه فجأة الرغبة في اعتصار شفتيها بشفتيه، فقال لها:

- اسمعي يا سنية.. قومي معي.

قال العجوز: - إلى أين؟

قال درويش: - دقائق.. وسنرجع.

قال الوالد وهو يحاول سدى أن يجرَّ من فوق المرأة نظراته:

- لا داعي أن تقوم الآن.. أنا أعرف ماذا تريد.

واحتدّ صوت درويش وهو يقول: - ماذا؟ قومي يا سنية.

وصاح العجوز في وجه ولده: - اسكت يا كلب.

وقامت سنية من جلستها وهي تتثنّى في قومتها دلالاً، وقد ملأها بالزهو شعورُها بأن الوالد يتنازعها ولده، وأسعدها أن ترى الحنق مرتسمًا على وجه درويش، وأن تشهد نظراته وهي تترامى على وجه العجوز كسهام الحقد.

وما أن تمّ لها الوقوف داخل الكوخ، حتى أحاط الشيخ فخذَها بذراعه، وهو جالس مكانه، متشبث بها، ودرويش يصيح:

- تعالي يا سنية. اخلعي فخذك من ذراعه.

وعند هذه الجملة، فك العجوز ذراعه من حول ساق المرأة الصغيرة، فكّها في حركة عصبية، ومال إلى جانبه الآخر، والتقط بيده غطاء وعاء نحاسي، وألقى بالغطاء في وجه درويش، وهو يزعق:

- الله يلعن أمك يا ابن الحرام!

واضطربث المرأة الصغيرة الحلوة. وكان نسيجُ اضطرابها يشتمل على خيوطٍ من الغبطة.

وصاح الشاب بعد أن صدّ الغطاء بيده فوقع على الأرض:

- تعالي يا سنية.. اتركيه وحده.

ولكن سنية لم تتحرك، فشد الولد ذراعها إلى الخارج.

قالت وهما أمام الكوخ الصفيح يمشيان: - إنه أبوك.

قال: - وماذا جرى؟

واستلقيا على بطن التل، وكانت على مقربة من مكانهما، تمتد مقابر موحشة، وتقوم مدافن عريضة.

وظل العجوز داخل الكوخ. وقد غاظه أن البنت الحلوة خرجت مع الولد إلى التل.

ولم يسأل الوالد نفسه لماذا هو مغتاظ!

لم يقل العجوز لنفسه:

- يا راجل إنت شخت.. وولدك جاء إلى هنا بنساء مختلفات، وكان يؤجرهن للرجال، ويقبض الثمن. كان يخرج مع كل واحدة إلى التل ليقضي في أحضانها بعض الساعة ويعود هادئًا، فلم تكن تهتم.

لم يحاول العجوز أن يتساءل عن السبب في ارتعاش قلبه، حين أمعن النظر في وجه المرأة الصغيرة. وبقي في الكوخ كالمتقلب على النار، ثم هب من مكانه بعد فترة وخرج إلى الفضاء، وعيناه محمومتان، ورأسه كالحجر، وصدره مكتوم.

ودار بناظريه في الخلاء. فلم يستطع في الظلمة المطبقة على الأرض، أن يشهد الولد والمرأة، فراح يمشي، حتى إذا قطع عدة أمتار، سمع صوتًا ناعمًا

ينساب عبر الظلام.

وارتعد العجوز على وقع الصوت، وجعل يتصور المرأة وهي بين أحضان ولده، ويتصورها وهي تُقبّل الولد.

وشعر كأنه مطعون، كأن عدوًا ضربه بعصا فوق رأسه وأسال دمه، فصرخ صرخة عاوية: - يا ولد.. تعالى هنا يا درويش.

وارتمى العجوز على الأرض كالكلب الهرم، واصطكت ركبتاه، وتذكر العظام في المقابر، وكيف كان وما زال يقتحم مع ولده القبر بعد القبر، ويمزق الأكفان، ويخلع أضراس الذهب من أفواه الموتى.

وجاءت إلى ذاكرته صور النساء البغايا اللواتي كان ولده يستجلبهن واحدة بعد واحدة إلى الكوخ، وكان يؤجرهن للرجال ويقبض هو المال. صعد إلى خياله وجهٌ بعد وجه.. نبوية كانت شقراء. وزينب كانت سمراء. وتوحة كانت نحيلة. ودولت كانت سمينة. وتلك أنفها كبير. وهذه فمها جميل. وكلهن هربن من الكوخ. ومن درويش. ومن العجوز.

وأخذ الرجل يقارن بين وجه كل واحدة من هؤلاء ووجه سنية، فيخرج من المقارنة بأن سنية أجمل امرأة على سطح الأرض، وبأن لحمها أشهى لحم.

وسمع العجوز وقع أقدام تسعى نحوه، فقال: - تعالى يا درويش.

وكان صوته يدفق بالهزيمة وبالحسرة.

ورجع الثلاثة إلى الكوخ، واضطجعوا داخله حتى

طلعت الشمس.

****

قال درويش: - قومي يا سنية.. أوقدي النار وأعدي لنا الشاي.

وتثاءبت المرأة الصغيرة. وفركت عينيها. وقال أبو درويش:

- عندي هنا بسكويت يا سنية.

قالت وهي تهب من النوم: - بسكويت؟!

قال أبو درويش: - بسكويت من زوّار القبور. إننا هنا جوار المقابر. وأنتِ ضروري أن تعيشي معنا يا سنية.

قال درويش: - بدلاً من أن تخافي في مصر ولا تعرفين أين تروحين وتجيئين.

قالت سنية: - أقعد هنا؟! ومن أين آكل؟ أنا مثل الدود.. أنا وحل.. لحمي للناس، لرجلين الناس.

قال درويش: - والناس يجيؤون إلى التلال بحثًا عن لحم امرأة.. أكثر الرجال الذين يبيعون اليانصيب والكفتة ويمسحون الأحذية، يأتون في الليل إلى هنا، ويعوون كالذئاب الجائعة، وهم مخدرون بالحشيش، وفي قلوبهم شهوات.. وأنت إذا بقيتِ هنا يا سنية، ستكسبين أموالاً كثيرة.

قال العجوز مقاطعًا ولده: - اسكت يا درويش.

قالت سنية تخاطب الشاب: - ولكنني سأخاف.

قال درويش: - من أي شيء تخافين؟! أنا رجلك يا سنية.

وصاح العجوز: - بل أنا رجلك يا ورد.

ومد الشيخ يده المرتعشة إلى ذراع سنية، ولامس جسمها في ميل واضح، ولمعتْ عيناه بوميض.

قال درويش: - تشتغلين ولا تناقشين الرجال.. أنا أصفّي معهم الحساب.

قال العجوز: - أي حساب يا درويش؟! سنية ستبقى معنا هنا، ولا رجال ولا حساب ولا عمل.. إنها...

وكان العجوز يود أن يقول: - إنها لي.

ولكنه قالها بعينيه، وبارتعاش شفتيه، وبزحفه نحو مكان المرأة كما يزحف كلب هرم مجروح الساقين إلى قطعة من اللحم.

ونظر درويش إلى والده فرآه كالمحموم.

ودخلت الحيرة إلى نفس درويش، وعجب ما الذي حدث لوالده الكهل! فقال موجهًا إليه الكلام: نحن نريد أن نعمل يا والدي.

وقام العجوز من جلسته إلى خارج الكوخ وهو يقول:

- نعمل؟ إننا نعمل.. إننا نصنع الأقفاص ونسرق الموتى.. أليس كل هذا عملاً كافيًا لأن يجلب لنا القوت الضروري والثياب؟

ورمق الوالد ولده بنظرة رادعة وأضاف:

- ستبقى معنا سنية. ولن يمسها رجل.. لن تبيع لحمها لغريب لقاء قرشين أو ثلاثة.

واستدار العجوز إلى المرأة، وقال:

- أنتِ ماذا تريدين يا سنية؟ ماذا تبتغين؟ لقمة العيش

والكسوة؟ إننا سنوفر لكِ اللقمة والثوب.. هل ضروري أن تعيشي كالدود كما تقولين وكالوحل يا سنية؟! حقًا، إننا ديدان يا سنية.. حشرات.. كلاب. ولكنني يا ابنتي قد شعرت بأنك... بأنك؟.. بأنك بنتي.

وكان صوت العجوز يتهدج، ووجهه ينبسط وينقبض، وعظامه توشك أن تصطك.

قال درويش وهو جالس داخل الكوخ القرفصاء:

- وإذن فنحن يا أبا درويش في بحبوحة تسمح لنا بأن نعول غيرنا!

ألا تعرّض نفسك للسجن في سبيل خلع ضرس الذهب من فم ميت؟

ألا تبيع الأفيون لأبناء الطريق لتكسب من كل قطعة ملاليم معدودة؟

ألم تقتل رجلاً ذات مرة وقبضت خمسة جنيهات؟

كل هذه الأعمال التي قمت بها يا أبا درويش، كان الدافع إليها هو كسب القوت. ثم إننا سبق لنا أن اشتغلنا بالنساء.. جاءت إلى هنا بغايا قبل هذه المومس، وكنت أنا بتوجيهك أقدمهن إلى الرجال، فوق التلال، وأقبض الأموال، وتسر أنت وتبتهج، وتأكل من الأعراض!

هذه النخوة الطارئة عليك يا أبا درويش مسألة عجيبة!

وتولى العجوز اضطراب، ثم زعق: أين الشاي؟

وكانت سنية قد فرغت من إعداده، فقدّمتْ كوبًا إلى العجوز، ثم سألتْ: - وأين البسكويت يا أبا درويش؟

قال: - هناك.. داخل الصفيحة الصغيرة.

وكانت كلمات درويش قد نالت من الشيخ وأرهقته، وملأت قلبه غضبًا استطاع أن يكظمه لحظات. ولكن الغضب هزم الشيخ، وتفجّر في قوله لولده:

- وهل أنتَ عالم من علماء الدين أو واعظ في الجامع، حتى تلقى علينا هذه الدروس؟! لقد نسيت أن أمك كانت تبيع سجقًا ولا تجد من يتزوجها حتى خدعتني وولدتك. سنية ستعيش معي هنا دون أن تعمل أو تبيع فخذيها يا كلب.. هل سمعت؟ وإذا كان كلامي هذا لا يعجبك، فاتركني يا أخي.. لا تبقَ في هذا الكوخ، وازحف كالثعبان إلى المدينة التي تتسلل في الظلام نحوها لتنشل الساعات! اذهب إلى مصر كي يقبض عليك البوليس ويرميك في السجن!

وكانت سنية مبتهجة أي ابتهاج، وهي تسمع هذا الحوار الدائر بين الولد ووالده. كان سر ابتهاجها أن الشاب والشيخ يختلفان ويتشابكان بالسباب والغلظة في القول من أجلها هي.

وقد شعرت بصدق الشيخ فيما يقول، وأحست أن الرجل يحب لها الراحة، ويتمنى لها الحياة الهادئة التي وعد بها.

وقد جلستْ وحدها تفكر، بعد أن خرج الشيخ والشاب من الكوخ. قالت لنفسها:

- يا بنت.. إن درويش شباب وهو يريدك أن تعملي، ثم يعطيك مسرّة الليل. وإن العجوز يا بنت، محطم أدرد

الفم، وليس فيه قوة كالبغل الشائخ، وهو يريدك أن تبقي دون عمل وأن تطهي له الطعام. ولكن المهم هو معرفة الحقيقة.. هل هذا العجوز يريدك لنفسك؟ هل هو حقًا يعتبرك بنته؟ أم أنه يشتهيك يا سنية؟

وحارت المرأة في إدراك حقيقة شعور العجوز نحوها. وقامت من جلستها وكنست الكوخ، ورتبت محتوياته: الحصير، والفراش، والأغطية، والمصباح الزيتي، والموقد، وأوعية النحاس.

ورجع العجوز إلى الكوخ عند الظهر، فوجد المرأة هناك، وابتسم فبدا فمه الأدرد كئيبًا يشبه مدخل قبر.

وقالت سنية: - أهلاً وسهلاً.

قال العجوز: - أهلاً بيكي يا ورد.. إنتي نور يا سنية.. زينة البيت يا سنية.

وقعد الشيخ وقال لها: - تعالي جواري.. تعالي يا سنية.

وراح الشيخ يضمها إلى صدره، وتمنت أن تصد رغبته، ولكنها أذعنت. وفوجئت بأن العجوز يقبلها، كانت مباغتة غريبة، لأن طعم القبلة كان فيه طعم الشهوة.

قالت: - أنت والدي.. إنك دعوتني بنتك يا أبا درويش.

قال الشيخ والنخاع داخل مفاصله يرتعش مثل صوته:

- أنا... إنتي بنتي.. وحبيـ.. بتي.. يا سـ.. نية.

واستسلمت المرأة للرجل وهي كارهة، ولكنها أيقنت بعد التجربة أنه لا يصلح للنساء.

ومرت ساعة جاء بعدها درويش إلى الكوخ، وكانت الشمس حامية، والعرق يتساقط على وجهه.

وانقضى النهار، وأرادت المرأة أن تودع درويش وأباه، وأن تخرج من التلال المهجورة إلى المدينة العامرة، فقالت:

- من الذي سيوصلني إلى مصر؟

قال العجوز: - ألم نتفق أنك ستبقين هنا يا سنية؟!

وكان في فم الشيخ طعم العجز والهزيمة حريفًا، يدفعه دفعًا إلى التشبث بإبقاء المرأة. كان في صدره شيء كالورق الذابل يتساقط.

قالت سنية: - أبقى؟! كيف؟

قال درويش: - وتعملين يا سنية.. وتعملين.

قالت: - كما اتفقنا.

وسكت الشيخ، وعرف من الكلام أن المرأة تذعن لإرادة درويش، فانزوى، جعل يزحف في جلسته حتى توارى في ركن من أركان الكوخ.

وفي الليل، صاح صوت من الخارج مناديًا:

- يا درويش.. درويش.. فين البالوظة؟

وسمع الثلاثة هذا الصوت، وقال درويش في همس:

- هذا رجل يريدك لساعة واحدة يا سنية فوق التل. وسيدفع عشرة قروش.

وقال الشيخ: - هل ترغمها على الخروج معه يا درويش؟

وقالت المرأة وهي تنظر إلى الشاب: - ماذا أصنع؟

وعاود الصوت من الخارج النداء: - يا درويش.

قال درويش بنبرة عالية: - انتظر.. قليلاً.

قال الشيخ: - اخرج أنت له يا ولد.. وأخبره أن «البالوظة» ليست هنا، وإننا لن نشتغل بالنساء بعد اليوم.

وكان في صوت العجوز حدة، وفي نظراته نار.

وأذعن درويش كارهًا، وغادر الكوخ إلى الخارج، وبقي العجوز مع المرأة يقول لها: - يا سنية.. أنا حبيتك يا سنية.

وتراجعت المرأة إلى الوراء وهو يقترب منها، ولكنه استطاع أن يلقي بشفتيه على شفتيها وأن يدخلهما في فمه، وقلبه يدق، وأنفاسه تضطرب، وجبينه ينضح بالعرق.

واقتحم درويش الكوخ وقال: - تعالي يا سنية.. الرجل ينتظرك.

ولم ينتظر حتى يتكلم الوالد، وإنما شدّها من يدي العجوز، الذي قال: - أنتِ لي وحدي يا سنية.

واحتمت المرأة بالشاب، وقالت: - بل أنا لدرويش.. أنت شيخ كالبغل العجوز ليست فيك قوة.. أنا لهذا الرجل.. وعيب عليك.

وانفلتت المرأة إلى الخارج، لتؤدى عملها، تاركة العجوز بعد أن ألقت بكلماتها الجنون إلى رأسه، فأطارت عقله.

ولم يدرِ العجوز ماذا صنع؟ إنه جعل يبحث في حيرة شديدة عن سكينه الحاد، حتى التقطها من زاوية في الكوخ، واندفع وراء المرأة ودرويش ولحق العجوز بالشاب والمرأة وهما يتكلمان مع الرجل الغريب.

وقد كان الليل مظلمًا جدًا، حين رفع العجوز سكينه وغرزها في صدر المرأة وهو يصرخ:

- أنا أحبك وأنت تكرهيني يا بغي.

وسقطت الضحية على الأرض وهي تهتف:

- نصيبي.. شيء مقدر.. نصيبي.. نصيبي.

وهرب الرجل الغريب، وأخذ درويش يجري عن مكان الجريمة، وفي أذنيه تتلاحق صرخات أبيه تمزق السكون:

- أحبك يا سنية... وتكرهيني.. أحبك.. وتكرهيني...

****

من مجموعة «قمصان الدم» ١٩٥٣.

خاتم الحق

«نشرت في ٧ يونيه سنة ١٩٥٢، وكان فاروق في دسته، تحرض على النظام في ظل الرقابة والحكم العرفي، وذلك أثناء المحاكمات العسكرية التي عقدها جهاز الملك الساقط للأبرياء بعد مؤامرة حريق القاهرة».

****

في الطريق من القاهرة إلى الفيوم، وقبل أن تبلغ السيارة بلدة الواسطة، تمتد على جانبي السكة أرض فضاء.

وهناك، على مقربة من حافة الطريق، تنتشر مقابر كثيرة ومدافن وتخيم وحشية، وتجثم سكينة، وتسطع الشمس على مساكن الموتى، فتحيي الدود والحشرات.

وفي الصف الأول من تلك القبور، تقوم شجرة عجوز درداء، يوحي شكلها بأنها ستتقصف، أمام أول عاصفة داهمة، لكنها في الحق كم ردت -كالحارسة الأمينة على الموتى- عواصف عملاقة! وكم هزمت أعاصير انصبّت من السماء، ودارت مجنونة في الفضاء، وانقضت، فقضت على الكثير من الأشياء، واقتلعت في جنونها شجرًا عديدًا، وقصفت أعوادًا صلبة عنيدة، والشجرة العجوز الجرداء كما هي، ثابتة في الأرض متماسكة الفروع، قوية الجذع، ضاربة الجذور في بطن التربة، لا تنال الأيام من صلابتها، ولا تحني السنون هامتها.

كل ما جرى لهذه الشجرة، أنها أطعمت الزمن أوراقها،

وخلعت نضارتها إلى غير ارتداء وودعت الصبا والغضارة، وبقيت في صورتها الجافة الدرداء!

آلاف الأعوام انقضت على هذه الشجرة وهي في مكانها عريقة، ولونها أحمر قانٍ كأنها تغتسل في كل دقيقة بدماء، ثم تعود فتغتسل بدماء.

وكان في نهاية آخر فروعها الجافة، خاتم من الذهب معلق.

ومن عجب، أن ذلك الخاتم كأنما نبت في فرع الشجرة، وأن الكثيرين حاولوا قطعه من فرعه، فلم يستطيعوا، لم تفلح السكين، ولا السيف، ولا أي سلاح من الأسلحة، في بتر ذلك الخاتم الذهبي من موضعه، فما هي القصة؟!

منذ عشرات الآلاف من السنين، كانت بلدة دهشور قد ظفرت بخاتم ذهبي قيل إنه خاتم الحق.

وكان هذا الخاتم مخصصًا لقاضي البلدة الذي يحكم بين الناس، يضعه القاضي في إصبعه، ويجلس في بيت العدل، ليفصل في شؤون المتخاصمين، ويبت في قضاياهم، ويصدر الأحكام.

وكان القاضي، إذا أصدر حكمًا جائرًا، شعر بأن الخاتم يطبق حول إصبعه ثم يطبق، حتى يوشك أن يبتر الإصبع من مكانها.

وعندئذ، كان القاضي، ينظر إلى المتخاصمين ويقول: إني أصدرت حكمًا ظلمًا، لأن خاتم الحق يكاد يقطع إصبعي.. إني ألغيت الحكم.. وسأعاود مناقشتكم.

وكان خاتم الحق عند ذلك، يجعلُ يتسع حتى يتخذ وضعه الأول في إصبع القاضي. وكانت دهشور تفاخر سواها من البلدان بذلك الخاتم، وقد علم الجميع أن لخاتم الحق خدمًا من الجن، ولم يهتد أحد إلى سره.

وسارت التقاليد على أن القاضي إذا شعر بدنو أجله ينتخب القاضي الذي سيحتل مكانه في بيت العدل، ويضع الخاتم في إصبعه ويستحلفه يمين الوفاء للحق.

وقد أحس «كليمونوس» قاضي دهشور بأن حياته قاربت الانطفاء، فاختار شابًا يدعي «أرديكاس»، ليصبح القاضي اللاحق، واستدعاه في حفل أقامه الكهنة، ووضع في إصبعه خاتم الحق. وأقسم «أرديكاس» أن يعيش مخلصًا للخاتم، مؤديًا واجب العدل.

وأسلم «كليمونوس» الروح. وصار «أرديكاس» هو القاضي.

وكان «أرديكاس» يخرج كثيرًا من دهشور إلى الحقول، ليستقرئَ الطبيعة الخفية الساحرة، ليملأ عينيه من السماء الزاهية، وأذنيه من غناءِ الطيور، وقلبه من جمال الزرع.

وكان حين يخرج إلى تلك النزهة لا يصطحب معه جندًا، ولا يرافق صديقًا، وإنما يفضّل أن يمشي إلى الخلاء الممرع الأخضر وحيدًا، ليحسن التأمل، ويفيد من الرياضة، ويعود زاخر النفس بالمشاعر الهنيئة، ملآنَ العقل بالخواطر البيضاء.

وجعلت تمشي الأيام، و»أرديكاس» يؤدي واجبه في

بيت العدل على أكمل وجه.

وذات أصيل، خرج «أرديكاس» من دهشور إلى نزهته في الحقول المجاورة، وكان هذه المرة ممتطيًا صهوة جواد أشقر اللون.

وقطع «أرديكاس» تحت الأصيل الجميل مسافة طويلة، وتوغل به الجواد في ممرات حقل كبير.

ووقف الجواد عند جدول رقراق، وحنى عنقه ليشرب، فهبط «أرديكاس» من فوق ظهر الجواد إلى الأرض، ونظر حوله، فإذا بكوخ من الخشب قائم على مقربة منه، وإذا فتاة، لا، بل جمال وحشيّ انصبّ في صورة فتاة، جمال أيقظ الميول الشهوية الراقدة في نفس القاضي.

وجمد «أرديكاس» في موضعه، ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة، يحيي بها كل هذا الجمال الغابي.

وكرع الجواد الماء حتى روي، ثم رفع عنقه من الجدول، ووقف إلى جوار القاضي.

وقد أحدثت حوافر الجواد أثناء ذلك، أصواتًا سمعتها الفتاة، فنظرت إلى المكان الذي صدرت منه تلك الأصوات، وشهدت «أرديكاس» وجواده، فنفرت إلى الكوخ كالظبي الأغن في خفة ووجل.

وأنشأت تتفتح في قلب «أرديكاس» ميول شهوية، فتمنى لو اقتحم الكوخ وراء الفتاة، وطوّق خصرها بذراعه، وأدخل شفتيها في فمه، وتمنى لو جذب ضفائرها بيده، ملصقًا وجنته بوجنتها، مفرغًا في أذنيها

صرخة غرائزه.

وصهل الجواد وضرب الأرض بقدميه، فصحا «أرديكاس» من تمنياته، ولكنه بدلاً من امتطاء صهوة لجواد، مشى إلى الكوخ حتى بلغ مدخله، وقال: - يا أهل المكان.. هل يجد عندكم حاجته غريب ظمآن؟

وقال صوت الفتاة من الداخل: - نحن خدم الضيفان.

ومضت برهة، خرجت على أثرها الفتاة تحمل وعاءً ملآن بالماء، وقدمته إلى القاضي، فتناوله منها، ورفعه إلى فمه، وشرب وهو في غير حاجة إلى الشرب؟ ثم قال: -ما اسم العروس؟

وخفضت الفتاة ناظريها وأجابت: -كلارا.

قال: -وأنا أرديكاس.. أرديكاس قاضي دهشور.

وكأن الماء المنور في مقلتي «كلارا» غاض، وكأن ورد خديها انقطف. وكأن الدفء الذي ينبعث من جسمها زال، فقد شهد «أرديكاس» أن «كلارا» تبدلت فجأة عند قوله لها: - قاضي دهشور، وشعر بأنها اقشعرت خوفًا، فساوره الندم، وحاول أن يخفف عن «كلارا» ما أنزله بها من اضطراب، فقال:- إني خادم العدل.

ثم نظر إلى عينيها، وأضاف: -وإني خادم الجمال.

وعاد «أرديكاس» على ظهر جواده راجعًا إلى دهشور، والسماء من فوقه سقف مظلم، والضفادع تنق في القنوات، والطريق في شعوره طويل طويل، وهو مخطوف الوعي، يفكر في الحُسن الباهر الذي استودعه الكوخ الخشبي، يفكر في مقلتي «كلارا» السحارتين،

وفي صوت «كلارا» الذي يوقظ وحش حيوانيته، وفي صدر «كلارا» ذي التفاحتين، وفي عودها الرخص، وفي ذراعيها البضتين، وفي أنامل يديها التي تحاكي العناب، وفي كل شيء يمتّ إليها ويتصل بها من قريب أو من بعيد.

وجعل «أرديكاس» يتمنى أن تكون الفتاة له، أن يستحوذ على ذلك الجمال الوحشي وأن يفترسه وينتصر عليه، أن يخضع لسلطان رجولته تلك الفتاة الغابية، فيحيل مناعتها استسلامًا، ونفورها إقبالاً وتمنعها عليه لواذًا به.

وجاء الصباح، فتوجه «أرديكاس» إلى بيت العدل، لينظر في شؤون المجرمين والضحايا والمذنبين والأبرياء، ورفاق الليل وأصحاب النهار، وليصدر الأحكام الرادعة، والأحكام المنصفة، يضرب بالأولى على أيدي المعتدين، وينتشل بالثانية حقوقَ المضيعين.

وكان «أرديكاس» مسروق البال أثناء نظر القضايا وخلال إعلان الأحكام.

وكان الخاتم يطبق على إصبعه ثم يطبق، بعد نطقه لكل حكم.

لذلك، صاح «أرديكاس» في بيت العدل: -لن أبتّ اليوم في قضية واحدة.. فإلى الغد.

وقام القاضي من مكانه، واستقل الجواد، متجهًا إليها، إلى الكوخ الخشبي الرابض في أحشاء الحقول.

وكانت صورة «كلارا» تملأ مخيلة القاضي، وصوتها

يرن في وجدانه رنين الذهب في وجدان فقير بخيل.

وكان الجواد كالريح في سرعته، وبصر القاضي تتخطفه أفواه الطرق، ليتبين أيها يؤدي إلى الكوخ فيمضي فيه.

وأخيرًا، بلغ الجواد بالقاضي حافة الجدول، فنزل «أرديكاس» إلى الأرض، ومط الجواد عنقه إلى الماء، وراح القاضي يمشي إلى الكوخ، وهو ينادي:

-كلارا.. كلارا.

وخرجت عروس الغاب، مهدلة الضفائر، مذعورة المقلتين، وقد أحب «أرديكاس» وميض الذعر في ناظريها.

قالت «كلارا»: -أنت؟

قال القاضي: -أرديكاس خادم الجمال.

قالت: -ماذا تريد؟

قال: -أنتِ.. أريدك أنت يا «كلارا».. إني أحوّل الحياة شيئًا في قبضتك، عشبًا بين أناملك، جرعة في كأسك.. هل تقبلين يا «كلارا»؟

قالت: -ماذا يا سيدي؟

قال:- أن تكوني لي؟ عندي لك الدار العظيمة، والفرش الحرير، والثياب، والعطر، والمجد، وشراب الكهنة.

قالت: -انصرف يا سيدي إلى شأنك، ولا ترجع إلى هنا مرة ثانية.. ليس قلبي لك.

قال: - وجسدك هذا.. إنني أشتهي جسدك.

قالت: -وأنا لا أمنح جسدي لغير الشخص الذي أسلمه

قلبي. أنا لا أفصل بين القلب والجسد.

وكان وجه السماء متشحًا بنقاب الغروب، وقد جعل الأفق -من خلف ذلك النقاب- يودّع الشمس وداعًا دمويًا، انسكبتْ قطراته في بلّور الغيوم، فشاع في الفضاء عذابٌ أحمر، أحسه القاضي سياط شهوة، وأحسته «كلارا» حنينًا قانيًا يلهم الطيور ترجيع الحب ومنغوم البكاء.

وانسابت عبر الحقول، على أجنحة النسيم، أنّات ناي حزين، فارتعش قلب الفتاة في صدرها حُبًا، وقالت للقاضي وهي تهم بالدخول إلى الكوخ: -هذا نداء حبيبي يرفّ نغمًا شجيًا.. وشكرًا يا سيدي لك.. شكرًا لك.

قال القاضي: -من هو حبيبك؟

وكانت «كلارا» قد دخلت إلى الكوخ، ولعلها لم تسمع كلمات «أرديكاس».

وحار القاضي فيما يصنع، فوقف مجلودًا بشهواته الدنيا، ثم قفز إلى صهوة جواده، وجعل يضربه بكلتا يديه، ويضربه بكلتا قدميه، فيندفع الحصان في الطريق اندفاع الجنون.

وفي الصباح التالي، اعتذر القاضي من النظر في القضايا، وأمر الجند بإحضار العرّاف، فلما جاء انفرد به، وقصّ عليه ما جرى له مع «كلارا».

واستأذن العراف في يوم واحد يرجع إليه بعده، وعنده الحل الناجع.

وانقضى الزمن المحدد، وأتى العراف، وقال للقاضي

إن «كلارا» تحب راعيًا اسمه «لاجوس».. ولو خلت حياتها من ذلك الراعي، تمكنت يا سيدي القاضي من تحقيق الذي تشاء.. ولا تحاول يا سيدي «أرديكاس» أن تخطب ودّها، قبل أن تخرج الراعي «لاجوس» من دائرة حياتها.

وتمتم «أرديكاس»: -إذن فهو صاحب الناي الذي تنساب أنّاته عبر الحقول وعلى أجنحه النسيم.. لن تهزمني تلك الفتاة.. إني أنا القاضي.. قاضي دهشور.

وانصرف العراف، وبقي «أرديكاس» غريق التفكير الأثيم، حتى أغاثت عقله فكرة شريرة، فحت لها غرائزه، وسكرتْ شهوته، وصفقت ميوله!

واعتزم «أرديكاس» أن ينفذ الفكرة الشريرة، فأطلق أحد الفرسان خلف الراعي «لاجوس»، ليأتيه عنه بالخبر اليقين، ليعرف من هو «لاجوس»، ومن أهله، وماذا يصنع في الحياة.

وكان القاضي يتلقف المعلومات التي يجيئه بها الفارس، يومًا بعد يوم، كما يتلقف الصياد حبال شبكة يُحْكم نسجَها.

وذات ليلة، فوجئ أهالي دهشور بالجند يسوقون الراعي «لاجوس» إلى السجن، توطئة لتقديمه إلى المحاكمة.

وكان الجنود يتصايحون: -أسرع الخطى يا سارق الحقل.. إنك أتلفت الزرع، وأفسدت الأرض، ثم أحرقت المحصول.

وكان الأهالي ينظرون من بيوتهم إلى «لاجوس» نظره الكراهية، فقد ذاع في دهشور قبل إلقاء القبض على الراعي، أن حقلاً كبيرًا اشتعلت فيه النار، فأتَت على زرعه وضرعه وشجره وثمره. وكان الفارس هو الذي حمل الخبر إلى دهشور.

وعند ذلك، خرج العساكر إلى الخلاء، متجهين نحو الحقل الذي أضرِمت فيه النار. وانقضت ساعات، ونزلت العتمة من السماء إلى الأرض، والأهالي ينتظرون عودة الجند.

وأخيرًا وصل الجنود إلى البلدة، وهم يسوقون الراعي، ويزعقون في الطريق: هذا هو اللص الذي سرق الزرع ثم أحرق الحقل، ليستر جريمته بالحريق، ويصرف عن سرقته الظنون.

وكان أهالي دهشور يتساءلون: -وماذا صنعتم بالنار السارية؟ نحن نخاف أن تمتد ألسنتها فتبلغ دهشور!

وكان الجنود يقولون: -لقد أطفأنا الحريق. ولم يعد خطر ماثل يهددنا.

ولم يكن أحد في دهشور يعلم الحقيقة، ولا يدري أن القاضي اتفق مع الفارس على سرقة الثمار من الحقل المجاور لكوخ الفتاة، وإخفاء تلك الثمار بالقرب من كوخ الراعي، ثم على إشعال النار في الحقل، والإتيان إلى دهشور في حالة ذعر لإبلاغ ما جرى، ثم العودة مع الجنود لإطفاء الحريق، والذهاب بهم إلى ناحية كوخ الراعي، ليروا الثمار المسروقة، وكي يلقوا على

«لاجوس» القبض. وعند ذلك، يقسم الفارس أنه شهد هذا الشخص متسللاً من الحقل قبل اشتعال الحريق مباشرة.

وقد أحسن الفارس أداء الدور المطلوب وأجاده، وتم بذلك للقاضي تنفيذ الجزء الأول من الفكرة الشريرة.

وعندما طلع الصباح، جعل «أرديكاس» يتأهب لمغادرة منزله إلى بيت العدل، بعدما خلع من إصبعه خاتم الحق، وأخفاهُ في صوان، ووضع بدلاً منه خاتمًا آخر صنعه شبيهًا بخاتم الحق من الذهب الخالص، ثم نظر إلى إصبعه وقال: -والآن.. لن يطبق عليك يا إصبعي ذلك الخاتم، ولن يبترك من يدي.

وابتسم القاضي بسمة شر، وخرج إلى بيت العدل، وفي رأسه أبشع صورة للظلم.

وجلس القاضي في المكان المقدّس الذي يعلو منه صوتُ العدالة، فيغيث مظلومًا، ويعاقب ظالمًا!

وساق الجند «لاجوس» مكبّلاً بالحديد إلى مكان القاضي. وسأل «أرديكاس» الراعي: -هل سرقت الثمر، ثم لم تجد ستارًا تخفي وراءه جريمتك غير إحراق الحقل؟

قال «لاجوس»: -لا يا سيدي.. إني لا أسرق.. إني لا أحرق.. إني أغنّي.. أسكب أشواق روحي في الناي.

واغتاظ القاضي عندما تذكّر الناي وأنّاته الحزينة ورجفة «كلارا» حين طارت تلك الأنّات إليها على أجنحة النسيم، ولكنه كظم غيظه، وقال:

-لن نضيّع الوقت.. أين الفارس؟ وأين الجنود؟ أين هم الشهود؟

وقصّ الفارس الحكاية الملفقة، وأقسم أنه شاهد الراعي وهو يتسلل من الحقل قبل اشتعال النار في الزرع، وذكر الجنود أنهم شاهدوا الثمار إلى جانب كوخ الراعي.

وسكت القاضي برهة، كأنه يفكّر، ثم قال: -إن لاجوس ارتكب أولاً جريمة السرقة، ثم اقترف جريمة ثانية أبشع من السرقة، وهي قضاؤه على المحصول الزراعي الذي تقتات منه دهشور طول العام، إذ أحرق الحقل وأتلفه إتلافًا، ففرض الجوع والفقر علينا طول السنة.

ورفع «أرديكاس» يده التي بها الخاتم المزيف إلى فوق وقال:

-وإني أحكم على لاجوس بالإعدام.

وعلّق الجميع أبصارهم على إصبع القاضي لحظة، ولم يسمع خلالها سوى تردد الأنفاس في الصدور، ثم قال القاضي:

- لم يطبق الخاتم على إصبعي.. وإعدام الجاني حق، إعدامه عدل.

وكادت الجدران تهتز من دوي الهتافات: - عاش أرديكاس.. يحيا القاضي العادل.. إلى الجحيم يا لاجوس.. عاش أرديكاس.

وبين الأعناق المشرئبة، ومن خلال الأيدي المرتجفة، لمح «أرديكاس» وسط الجموع وجه «كلارا» فتولاه

اضطراب، شعر بأن ما يشبه الحُمّى يفجأ أعصابه. وسرعان ما لوى وجهه، وخرج من الباب الخلفي لبيت العدل، والهتافات كالزئير، أمواج بارقة راعدة.

واتجه القاضي إلى منزله، تاركًا الراعي بين أيدي الجنود، لينفّذوا فيه حكم الإعدام، ولعل «أرديكاس» لم يذهب إلى ساحة دهشور ليرى إعدام «لاجوس»، مخافة تأنيب الضمير، بل إن صوت ضميره كان كلما أراد أن يعلو داخل نفسه راح القاضي يستجلب إلى خياله صورة «كلارا» وجمالها الوحشي، فيتلبد قلبه بوحل الشهوة، ويلف بصرخات غرائزه ذلك الصوت النحيل الضئيل (صوت ضميره) كما تلف الظلمات آخر تنهيدة من نور الشمس، وهي تودع الآفاق.

امتلأت ساحة دهشور بالناس يأتون من كل فج عميق، الشيوخ والأطفال، والنساء والرجال، والفتيات، والشبان، يتوافدون ويتزاحمون ويتدافعون بالأيدي وبالمناكب إلى مكان الإعدام، حتى غصّت الساحة بالمواطنين، واختنقت بالجماهير.

وكان شيخ عجوز على مقربة من الحبل المُعدّ لشنق «لاجوس»، وكانت إلى جوار الشيخ تقف «كلارا» ذات الجمال الوحشي والمقلتين الحزينتين.

ورفع الجند «لاجوس» إلى المنصة الخشب، فتعلق في الفضاء، وجعل يتأرجح قليلاً، ثم فاضت الروح.

وكانت الهتافات تدوي:

- إلى الجحيم يا لاجوس.. تحيا العدالة.. إلى الجحيم

يا لاجوس.

وسقط الشيخ العجوز الذي كان واقفًا بالقرب من المشنقة، وأخرجت «كلارا» خنجرًا من ثيابها شقت به صدرها شقًا.

وتجمّع الناس حول الشيخ والفتاة، فإذا الأول قد أسلم النفس الأخير، وإذا الثانية تعاني سكرات الموت انتحارًا.

وعرف أهالي دهشور أن الشيخ هو والد «لاجوس»، وقد مات حزنًا على ولده، وأن «كلارا» هي حبيبة الراعي وعروس آماله، آثرت أن تلحق بحبيبها على أن تبقى في الأرض.

ثم حمل أهالي دهشور الجثث الثلاث إلى المدافن، وواروها المقابر، ثم عادوا بين أسيف وسعيد، وحزين ومبتهج، ومثرثر وساكت.

وهبط الليل، وكان القاضي لم يغادر المنزل، وقد جاءته أنباء موت الشيخ همًّا وانتحار الفتاة حبًا، فوقعت عليه تلك الأنباء وقوع القواصم، بل إن انتحار الفتاة وحده، هو الذي أرعش قلبه، وأسكن ذاته كرب الهزيمة.

وقد رفض «أرديكاس» أن يقابل أحدًا ممن يترددون على بيته للزيارة بعد المساء، وبقي مهدوم القوى، ويتمنى لو استطاع أن يبعث «كلارا» من الموت، ليقول لها: لن تفرّي مني، أيتها الغابية ذات الجمال الوحشي، ولن يخلصك حتى الموت مما أريد بك.

ونام جميع الذين في دهشور، والقاضي يقظان، لا بل مؤرق الأجفان، كأنما انشدت نياط قلبه من داخل صدره

إلى لوح من الحديد!

وزال شعور القاضي بالزمن، وتلاشت معالم المكان، وخيل إليه أنه في دوامة من الظلام وكأن المصابيح في البيت ما ضاءت، وكأن المنزل ما قامت له قائمة. وسمع «أرديكاس» صوتًا كالعواء الممطوط، ثم ما لبث أن خرج من مصدر ذلك العواء، في دوامة الظلام، جسم مديد رفيع، رأسه قطعة مدببة من نار وذراعاه طويلتان. وخيل إلى القاضي أن حجرًا يسقط على قلبه، فصرخ:

-من أنت؟!

قيل: - أنا خادم الخاتم.. بل إني واحد من خدمه العديدين.

قال «أرديكاس»: -أجنيّ أنت؟

قال الخادم: -جني أنا يا أرديكاس.

قال القاضي: - وماذا تريد؟

قال الخادم: -لا أريد شيئًا أكثر من تقديمك إلى المحاكمة.

قال «أرديكاس»: -أي محاكمة؟! وأين؟

قال الخادم: - سترى أيها القاضي الذي خان الأمانة.

ولم يكد القاضي يحاول أن يرفع يديه متوسلاً، حتى شعر بأن يدين غير منظورتين تحملانه إلى فوق، ثم تطيران به عبر الدجى، وهو يصيح وقلبه ينبض في صيحاته: - أتوسل إليك.. الرحمة.. الرحمة.. أدركوني يا أهالي دهشور.

وكانت الظلمات من فوقها ظلمات، والسماء يتيمة

القمر شهيدة النجوم، ولا شيء يبدو في ناظري القاضي غير جسم ذلك الخادم الجني ورأسه النار!

وأخيرًا، هبطت بالقاضي اليدان غير المنظورتين إلى مكان موحش، فقال «أرديكاس» وهو يوضع على الأرض: - أين أنا؟

قال الخادم: - في المقابر.. هنا قتلاك يا أرديكاس.. هنا دفن لاجوس، ودفن والده، ودفنت كلارا.. انظر.. ألا ترى شيئًا كالحريق يتجمع نارًا، ويشتد لهيبًا، فيتضح على نوره المكان؟ هذه النار هي الآلام التي أذاقها ظلمك للذين قتلت يا أرديكاس. وعلى ضوء هذه الآلام أيها القاضي الظالم الخائن ستنعقد لك المحاكمة. وارتاع القاضي حين رأى حوله مقابر من بعدها مقابر، ومن بعدها مقابر.

قال الخادم: - انظر.. ألا تشهد هذه الشجرة؟

ونظر القاضي، فإذا أمامه شجرة قد علق في أحد فروعها خاتم ذهبي.

قال الخادم: - هذا هو خاتم الحق. ثم صاح الخادم صيحة فتَّت جميع تماسك القاضي: عقدت المحكمة.

وارتفع غطاء أحد القبور إلى فوق، وقام داخله ميت مدثر بكفن أبيض، ثم مزق الميت كفنه بيديه، وجعل يمشي نحو الخادم والقاضي، إلى مكان الشجرة.

ثم ارتفع غطاء قبر ثانٍ، وغطاء قبر ثالث، وخرج من القبرين ميتان آخران، وصنعا مثلما صنع الميت الأول.

وتجمع الثلاثة أمام القاضي، فصاح الخادم: - مزّقوا

من على وجوهكم الأقنعة يا ضحاياه.

وسقط القاضي على الأرض مغشيًا عليه، حين رأى وجوه الموتى فعرف أن الثلاثة الذين بعثوا لمحاكمته، هم الراعي «لاجوس»، ووالده الشيخ الحزين، وحبيبته «كلارا» ذات الجمال الوحشي.

ونظر الضحايا الثلاث نظرة ذات مغزى إلى الخادم، فأيقظ القاضي من غيبوبته، بصيحة أطلقها كالنار تهب هبوبًا مخبولاً.

قال الراعي للقاضي: - أنت لفّقت لي الجريمة وسقتني بما دبّرت لي إلى المشنقة.

وقالت «كلارا»: لأنك أردت أن تحقق لنفسك معي غرضًا شهويًا، فأخفقت. ثم علمت أني أحب ليل لاجوس وأعشق أنّات مزماره التي يسكب فيها الحنين إلى المجهول.

وقال الخادم: - وجاءك العراف يا أرديكاس ونصح لك بإخراج الراعي من حياة الفتاه، فلوّثت أحد صنائعك بالتجسس والكذب والاختلاق، وتم لك ما أردت.

وقال الشيخ: - ولم أحتمل الصدمة، فاستشهدت من هول الفاجعة!

ولم يقو «أرديكاس» على قول كلمة واحدة، وسادت سكينة رهيبة. ثم قال صوت جاء من الشجرة: وقد خنت القسم الذي آليت به على نفسك، أن تظل وفيًا لي مخلصًا للعدل، مؤديًا رسالة الحق.

ونظر القاضي إلى مبعث الصوت، فقال الخادم: -إنه

خاتم الحق الذي يتكلم. إنه الخاتم الذي مزّقت حرمته وزيّفت شبيهًا له، لتضعه في إصبعك يوم تنفيذ جنايتك المروعة.

قال الراعي: -وإني بحق الليل الساجي الذي أحلت نسائمه أنغامًا، وبحق المشاعر الطيبة النبيلة التي أردت أيها القاضي أن تُطفئها بإعدامك إياي، أطالب بإعدامك.

وقال الوالد: -وإني بحق الأبوّة التي فجعتها بجريمتك الشنعاء وهززتها بقبضة شرك فتساقط ورقها ذابلاً على التراب، أطالب أنا الآخر بإعدامك.

وقالت الفتاة: -وإني بحق الحب الطاهر الذي كتمته في جنبي للراعي وعشت على نوره نقية صافية الروح، وبحق الوجد الشجيّ الذي أردت أن تقتله أيها القاضي الظالم الشهوي، لتستبيح جسدي، وتحوّلني من طاهرة إلى عاهرة، أطالب أنا أيضًا بإعدامك.

وقال صوت آتٍ من الشجرة: -وإني بحق الأمانة التي حملتها لك فخنتها خيانة بشعة، وبحق المقدسات العادلة وقيم الإنصاف في الإنسانية، أطالب أنا كذلك بإعدامك.

قال الخادم: -ولكن أين الفارس الذي عاون أرديكاس في تنفيذ الجريمة؟

قال الخاتم: -له محاكمة أخرى.. والآن.. قيّد هذا المجرم بالحبال.. أين الحبال؟

قال الخادم: -إني أحضرت ذات الحبال التي شنق بها لاجوس.. وهذه هي.

وقيّد الجني القاضي. قيّد رجليه ويديه، ثم حمله إلى فوق.

كل هذا و»أرديكاس» لا يتكلم؛ ثلّجه الرعب، وقضى على كل قدرة فيه.

ونظر الضحايا الثلاث، فإذا الخاتم في فرع الشجرة يتسع ثم يتسع، حتى أصبح دائرة يمكن أن يدخل فيها رأس القاضي. وأدخل الجني رأس «أرديكاس» في الخاتم الذي جعل يطبق على عنق القاضي ثم يطبق حتى شنق المجرم!

وطلع الصباح، وشهد أحد الذين يعملون في حقل مجاور للمدافن، رجلاً مشنوقًا تحت الشجرة. وأبلغ الرجل أهالي دهشور، ففزعوا إلى المقابر ورأوا القاضي، والخاتم الذهبي المعلق في فرع الشجرة، وجثث الضحايا الثلاثة مرمية حيث كانت واقفة. وسمع أهالي دهشور، صوتًا آتيًا من الأفق يقول: - إنه خاتم الحق المعلّق في فرع الشجرة.. لقد خان القاضي رسالته، فحقت عليه اللعنة.

وقد أخذ الناس يتناقلون هذه الحكاية جيلاً بعد جيل.

ويؤكد حارس القبور اليوم، أنه منذ عمل في الحراسة حتى الآن، يشهد في جوف الظلام محاكمة القاضي تتكرر كل ليلة، وأن الحارس الذي قبله كان يشهد تلك المحاكمة المتكررة، وكان يرى كما يرى الحارس كل صباح، دماء «أرديكاس» سائلة على الشجرة.

ثم يضيف حارس القبور: -وهذا هو السبب في أن لون

الشجرة أحمر قانٍ.. إنها تغتسل كل ليلة بدماء القاضي الظالم. وعندما يبزغ الصبح تختفي الجثث ولا يراها إنسان!

٧ يونيو ١٩٥٢

من مجموعة «قمصان الدم» ١٩٥٣.

تعريف بالكتاب

عبد الرحمن الخميسي

- «عشت أدافع عن قيثارتي فلم أعزف ألحاني»، هذه العبارة التي أطلقها الشاعر عبد الرحمن الخميسي ذات مرة ليصف حياته، جاءت بتصوير دقيق لحياة ذلك الشاعر الرومانسي الكبير الخصبة، التي تقلّب فيها بين مختلف ألوان الفن، مبدعًا في الشعر والقصة والمسرح والتمثيل والصحافة والتأليف الإذاعي والإخراج السينمائي وتعريب الأوبريت، بل وتأليف الموسيقى والأغاني كتابة ولحنًا، ومذيع عرف بأنه «صاحب الصوت الذهبي".

ولد عبد الرحمن الخميسي (عبد الرحمن عبد الملك الخميسي مراد) في ١٣ نوفمبر عام ١٩٢٠، بمدينة بورسعيد، لأم حضَرية هي عائشة أبو الحسن، وأب فلاح متوسط الحال من قرية منية النصر بالمنصورة. ويقول الخميسي عن نشأته: «كانت والدتي تمثل المدينة الساحلية المصقولة المضاءة بالكهرباء، وكان أبي يمثل الحقل غير المهذب حواشيه، لكنه يفوح برائحة النمو.. ولم يكن من المستطاع أن يعيش النقيضان تحت سقف واحد، فتم بينهما الانفصال، وضيّعاني وأنا طفل صغير". وعندما بلغ الخميسي السادسة اختطفه والده من بورسعيد وأرسله إلى مدرسة في قرية الزرقا، ثم إلى مدرسة القبة الثانوية بالمنصورة، لكنه لم يكمل دراسته بها.

ويحكي الخميسي في مقال كتبه لمجلة «كتب للجميع» في أبريل ١٩٦٠ أن أول نشاط فني له وهو صبي في نحو العاشرة، كان حشد الصبية في قريته ذات ليلة والاتجاه بهم إلى مقابر الأثرياء في القرية، لخلع أخشاب المقابر من أجل بناء مسرح للفقراء! وكانت تلك الحادثة إشارة إلى وعي الخميسي المبكر بالفروق الاجتماعية الصارخة. وفي سن مبكرة بدأ الخميسي يكتب الشعر ويرسل قصائده من المنصورة، فتنشرها كبرى المجلات الأدبية حينذاك، مثل «الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات، و"الثقافة» للأستاذ أحمد أمين، ثم استقر قراره على الانتقال للقاهرة عام ١٩٣٦، ولم يكن له بها سند أو قريب، وفيها أجبرته الظروف على العمل بائعًا في محل بقالة وكومساري ومصححًا في مطبعة ومعلّمًا في مدرسة أهلية، والنوم على أرائك الحدائق، كما جاب الريف مع فرقة «أحمد المسيري» المسرحية الشعبية التي كان صاحبها يرتجل النصوص، وكان عند رجوع الفرقة من جولاتها يكتب الأغاني في شارع محمد علي باسم مؤلفين آخرين نظير مبلغ زهيد. وفي فترة متأخرة دخل إلى عالم الصحافة بانضمامه إلى جريدة «المصري» لسان حال الوفد قبل ثورة ١٩٥٢، وأصبح الخميسي خلال سنوات معدودة أكثر الكتاب المصريين شعبية حينذاك، كما يشير الدكتور سيد أبو النجا بعد استفتاء تم تحت إشرافه. وكان يكتب في «المصري» عمودًا ثابتًا بعنوان «من الأعماق". ولمع

الخميسي شاعرًا من شعراء الرومانسية ومدرسة أبوللو بروادها الكبار: علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، وإبراهيم ناجي، وغيرهم. وفي بداية الأربعينيات تأثر الخميسي تأثُّرًا بالغًا بكاتبين عملاقين: الأول شاعر الرومانسية الثورية الكبير خليل مطران، والثاني سلامة موسى الذي قاده إلى رحاب الفكر الاشتراكي. ويقول الخميسي في مقال له بأن هناك ثلاثة وقفوا إلى جانبه: «كان أهل قريتي هم أول أولئك الثلاثة.. فقد أخذوا يستقبلون محاولاتي في نظم الأزجال وقصائد الشعر بحبٍ جمّ وسرور فائض.. وثاني الذين وقفوا إلى جانبي وشدوا أزري هو أستاذي العظيم المرحوم خليل مطران، حين جئت من الريف إلى القاهرة عام ١٩٣٦.. والثالث سلامة موسى: «أول من وجهني إلى فهم الصلة بين الفن والعلم، وأنه إن لم تكن لهما وظيفة اجتماعية فقد انعدمت فائدتها للناس".

وفي سنوات ما قبل ثورة ٥٢ أخذت تظهر مجموعات الخميسي القصصية التي صورت طموح المجتمع المصري وخاصة الطبقات الفقيرة إلى عالم جديد. وعندما قامت ثورة يوليو، وأغلقت صحيفة «المصري»، اعتقل الخميسي وظل رهن الحبس من يونيه ١٩٥٣ حتى منتصف ديسمبر ١٩٥٦ نظرًا إلى موقفه الداعي للتشبث بالحياة الحزبية الديموقراطية، وارتباطه بلجنة الفنانين اليسارية. وبعد الإفراج عنه التحق بجريدة «الجمهورية»، لكن الحكومة قامت فيما بعد بنقله فيما

يشبه العزل السياسي مع مجموعة من أبرز الكتاب، إلى وزارات مختلفة، وكان نصيبه منها وزارة التموين، فألّف في تلك الفترة فرقة مسرحية باسمه، كتب وأخرج أعمالها ومثّل فيها وجاب بها المحافظات، كما كتب للإذاعة عدة مسلسلات لاقت نجاحًا خاصًا أشهرها «حسن ونعيمة»، التي تحوّلت لفيلم، واعتبرها النقاد قصة روميو وجولييت المصرية، ثم انتقل إلى تعريب الأوبريتات، في تجربة كانت الأولى من نوعها في تاريخ المسرح الغنائي، خاصة أوبريت «الأرملة الطروب"، وألّف العديد من الأوبريتات المصرية، ثم انتقل إلى تأليف وإخراج الأفلام السينمائية. وإلى جانب ذلك كله كان الخميسي يواصل دوره الصحفي والأدبي في مجال القصة والشعر، ومهّد الطريق لمواهب كبرى مثل يوسف إدريس، واكتشف طاقات أخرى مثل الفنانة سعاد حسني وغيرها، وترك أثرًا خاصًا بدوره في فيلم الأرض ليوسف شاهين. ومع تولي الرئيس السادات الحكم أعيد الصحفيون المعزولون إلى صحفهم، وبرجوع الخميسي إلى جريدة «الجمهورية» كان أول ما نشره سلسلة من المقالات، مُنع نشر ما تبقى منها، وبعدها هاجر الخميسي من مصر في رحلة طويلة من بيروت إلى بغداد ومن بغداد إلى ليبيا ومنها إلى روما ثم باريس ثم موسكو، وعام ١٩٨١ أصدرت محكمة القيم (التي استُحدِثَت حينذاك) في جلسة لها بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٨١ حكمًا بإسقاط الحق المدني لعبد الرحمن الخميسي، وقضى

الخميسي في موسكو ما تبقى من سنوات حياته، حتى وفاته في أبريل ١٩٨٧، فنقل أبناؤه جثمانه ليُدفن في المنصورة حسب وصيته الأخيرة. وباعتراف أبناء جيله جميعًا كان الخميسي شخصية جذابة وفريدة، وعلى حد قول أحمد بهجت قام الخميسي بدور في: «تنوير الحياة الأدبية يشبه دور برتراند راسل في المجتمع الإنجليزي"، وقال عنه يوسف إدريس إنه «أول من حطّم طبقية القصة"، وأنه: «عاش قويًا عملاقًا مقاتلاً إلى ألف عام"، وكتب أحمد بهاء الدين قائلاً: «دهشت عندما قرأت في نعيه أنه توفي عن سبعة وستين عامًا فقط، وكنت أظنه أكبر من ذلك لكثرة ما أنتج وكثرة ما عاش، وكثرة ما سجن، وكثرة ما سافر في أنحاء الدنيا، وكثرة ما ترك من الأبناء والبنات في شتى عواصم العالم". وقد ترك الخميسي تراثًا في مختلف حقول الفن، وعد بذلك ظاهرة فنية وثقافية متعددة الفروع والتأثير.

أعمال الخميسي:

* في الشعر: ترك الخميسي سبعة دواوين شعرية هي: الدواوين: «أشواق إنسان» مايو ١٩٥٨ القاهرة. ثم «دموع ونيران» ١٩٦٢ القاهرة، ثم ديوان «الخميسي» دار الكاتب العربي ١٩٦٧، ثم ديوان «الحب» ١٩٦٩ القاهرة. و»إني أرفض» بيروت. «تاج الملكة تيتي شيري» ١٩٧٩ بيروت. «مصر الحب والثورة» ١٩٨٠

بيروت.

وقد اعتبره الدكتور لويس عوض «آخر الرومانسيين الكبار»، وأشار إلى قصيدته «في الليل» معتبرًا أنها «من أروع ما نظم شعراء العربية". واعتبر د. محمد مندور أن الخميسي «بلغ بشعره حد السحر".

* وفي القصة: توالت مجموعاته القصصية، بعد أن أعاد صياغة «ألف ليلة وليلة الجديدة» على صفحات «المصري»، وصدرت في جزأين، ثم ظهرت مجموعته الأولى «من الأعماق» ثم «صيحات الشعب» في نوفمبر ١٩٥٢، ثم «قمصان الدم» مارس ٥٣، و"لن نموت» مايو ١٩٥٣ ثم «رياح النيران» مكتبة المعارف بيروت أبريل ١٩٥٤، و»ألف ليلة الجديدة" و"دماء لا تجف» في نوفمبر ١٩٥٦، "البهلوان المدهش» أكتوبر ١٩٦١ (الكتاب الذهبي روز اليوسف)، وأخيرًا «أمينة وقصص أخرى» (الكتاب الماسي) عام ١٩٦٢، وكانت تلك آخر مجموعة قصصية له، فلم يعد إلى فن القصة. وله أيضًا قصة طويلة لم تطبع نشرت في «المصري» أواخر الأربعينيات تحت عنوان «الساق اليمنى".

ويكتب الدكتور سيد حامد النساج في كتابه «اتجاهات القصة المصرية القصيرة» أن القصة القصيرة الواقعية توارت طوال الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، وحل محلها اتجاه رومانسي سيطر على وجدان كُتّابها، ومنهم محمود كامل وإبراهيم ناجي ويوسف جوهر

وصلاح ذهني ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس وغيرهم.. أما كاتب القصة الذي يعتبر مثالاً للرومانسية الثورية التي لم تحُل دونه ودون نقد الأوضاع الطبقية والوقوف مع المظلومين ضد الظالمين.. فإنه عبد الرحمن الخميسي في قصصه القصيرة التي كتبها منذ أواخر الأربعينيات حتى الستينيات، مما جعل رومانسيته تحمل هذا الطابع الثوري الإيجابي متأثرة بحركة المجتمع. وقد أكد الدكتور علي الراعي نفس المعنى. وفي نفس المضمار أشار يوسف إدريس إلى أن الخميسي «حطّم طبقية القصة القصيرة".

* في المسرح: شكّل الخميسي فرقة مسرحية باسمه في ٢١ مارس ١٩٥٨، وقدمت عرضها الأول على مسرح ٢٦ يوليو الصيفي، بثلاث مسرحيات قصيرة من تأليف الخميسي وإخراجه وتمثيله، وهي «الحبة قبة"، و"القسط الأخير" و"حياة وحياة". ثم قدّمت فرقته مسرحية «عقدة نفسية» المترجمة عن الرواية الفرنسية «عقدة فيلمون» لمؤلفها جان برنار لوك، واقتبسها للمسرح الإنجليزي جون كلمنتس وسماها «الزواج السعيد»، ثم مصّرها أحمد حلمي لفرقة الخميسي. وكانت «عزبة بنايوتي» تأليف محمود السعدني ثالث عروض الفرقة، وفيها قام الخميسي بدور كشف عن طاقاته كممثل بارع. وقدمت الفرقة بعد ذلك عملها الرابع والأخير وهو «نجفة بولاق» تأليف عبد الرحمن

شوقي في مارس ١٩٦١، وجابت الفرقة محافظات القاهرة، ثم توقفت بسبب الظروف المالية.

*_في_مجال_الأوبريت: اتجه الخميسي إلى تعريب الأوبريتات وكتابتها، فقدم أولاً أوبريت «الأرملة الطروب» عام ١٩٦١، الذي وضع موسيقاها الموسيقار المجري فرانز ليهار عام ١٩٠٥، وعرض في نفس العام في فيينا، وهي من تأليف «فيكتور ليون" و"ليوشتين". وتمكّن الخميسي مع الالتزام بالترجمة الشعرية الدقيقة للنص الأصلي من اختيار وضبط الكلمات العربية شعرًا على مقياس الوحدات الموسيقية والألحان الأصلية التي وضعها فرانز ليهار. وقدّم الخميسي تجربة ثانية مماثلة من تعريبه أيضًا، هي أوبريت «حياة فنان» تأليف الموسيقار الإنجليزي إيفون نوفيللو، وكان اسمها الأصلي «السنوات المرحة»، وتم عرضها بدار الأوبرا في مطلع شهر ديسمبر عام ١٩٧٠، وكلّفت وزارة الثقافة المخرج النمساوي توني نيسنر الذي أخرج من قبل «الأرملة الطروب» بإخراجها. وقدّم الخميسي للمسرح الغنائي من تأليفه أوبريت «مهر العروسة» عن تأميم قناة السويس، ونشر الفصل الأول منها في «الجمهورية» في ٢٧ مايو ١٩٦١، وعرضت في ٢ أبريل عام ١٩٦٤، وفي ٢٩ يوليه ١٩٦٣ وقّع الخميسي عقدًا مع المؤسسة العامة للمسرح والموسيقى، قدّم بموجبه أوبريت جديدة من تأليفه، هو «الزفة» لكنه لم يعرض.

وخاض غمار كتابة أوبريت جديدة هي «عيد الحبايب"، وصرّح للصحف حينذاك بقوله «نريد أن نحدث ثورة في المسرح الغنائي مبنية على أسس فنية وتحمل في نفس الوقت أيديولوجية متقدمة". كما خطط لكتابة أوبريت مشتركة مع الشاعر التركي العالمي ناظم حكمت عن تاريخ كفاح الشعب المصري، وذلك عندما التقى الفنانان في مؤتمر لكُتّاب آسيا وإفريقيا في القاهرة في فبراير ١٩٦٢، لكن الظروف الشخصية للشاعرين حالت دون تحقيق ذلك الحلم.

وكتب محمود السعدني في يناير ٦٤ بـ»صباح الخير» أن «مهر العروسة ستظل المفتاح السحري الذي فتح أبواب المسرح الغنائي المصري".

*في السينما: قدّم الخميسي أربعة أفلام شارك في وضع قصصها وسيناريوهاتها وألّف الموسيقى التصويرية لبعضها، ومثّل في بعضها الآخر وهي: «الجزاء» ١٩٦٥ بطولة شمس البارودي وحسين الشربيني. «عائلات محترمة» عام ١٩٦٨ حسن يوسف وناهد شريف. «الحب والثمن» أكتوبر ١٩٧٠ أحمد مظهر وزيزي البدراوي. «زهرة البنفسج» ١٩٧٢ زبيدة ثروت وعادل إمام. كما قدم للسينما اكتشافه الرائع سعاد حسني في فيلم «حسن ونعيمة» الذي كتب له السيناريو، كما قام بأداء دور الشيخ يوسف في فيلم «الأرض» ليوسف شاهين.

* في النقد: قدّم كتاب «الفن الذي نريده» الدار المصرية عام ١٩٦٦، وكتاب «مناخوليا – محاورات ونظرات في الفن» - وكتاب «المكافحون» وهو سير لحياة العظام مثل عبد الله النديم وغيره، صدر عن مطبوعات «المصري» في سبتمبر ١٩٥١.

* في الترجمة: ترجم مختارات من أشعار ووردزورث، وكيتس، ثم مختارات من القصص العالمية تحت عنوان «يوميات مجنون» صدرت في كتب للجميع ما بين ١٩٥١ - ١٩٥٢، ثم «مختارات من الشعر السوفيت» عام ١٩٨٥ صدرت عن دار رادوجا الروسية، ثم «الصهيونية غزو بلا سلاح» للكاتب فلاديمير بيجون بيروت عام ١٩٨٥.

وفي النهاية فقد ترجمت أعمال الخميسي إلى لغات عديدة منها الإنجليزية والروسية والفرنسية وغيرها، وكانت موضوعًا لرسائل الدكتوراه في جامعات أوروبية عدة.

أحمد الخميسي

د. أحمد الخميسي. كاتب صحفي وقاص. مواليد القاهرة ١٩٤٨. حصل على دكتوراه في الأدب الروسي من جامعة موسكو عام ١٩٩٢. عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر. عمل في الصحافة بدءًا من عام ١٩٦٤، وظهرت قصصه القصيرة في العام ذاته في المجلات المصرية. قدمه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة "الكاتب" المصرية عام ١٩٦٧.

- عمل أثناء وجوده في روسيا مراسلاً صحفيًا لجريدة الاتحاد الإماراتية وإذاعة دولة الإمارات من ١٩٨٩ حتى ١٩٩٨.

- عمل مراسلاً لمجلة "الآداب" البيروتية ثلاث سنوات من ٢٠٠٦ حتى ٢٠٠٩.

- كرّمه اتحاد الأدباء العرب لدوره في ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية. وكرّمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب.

- حاز جائزة "نبيل طعمة" السورية عن مسرحيته "الجبل" عام ٢٠١١.

- جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية "كناري" كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام ٢٠١١.

أعماله:

١- «الأحلام، الطيور الكرنفال» مجموعة قصصية – الهيئة المصرية – ١٩٦٧.

٢- كتب حوار فيلمي «عائلات محترمة» عام ١٩٦٨ و»زهرة البنفسج» ١٩٧٢.

٣- «معجم المصطلحات الأدبية» ترجمة عن الروسية عام ١٩٨٤.

٤- «المسألة اليهودية» للأديب العالمي دوستويفسكي - مجلة أدب ونقد – العدد رقم ٦٩ – مايو ١٩٩١، وأعادت مجلة «زرقاء اليمامة» عام ١٩٩٦ نشر نفس الترجمة.

٥- «كان بكاؤك في الحلم مريرًا» قصص مترجمة عن الروسية – دار المستقبل - ١٩٨٥.

٦- «قصص وقصائد للأطفال» ترجمة - اتحاد الكتاب العرب دمشق عام ١٩٩٨.

٧- «نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق» ترجمة وإعداد - دار الثقافة - ١٩٨٩ – وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.

٨- «أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج»- تأليف وترجمة- ١٩٩١ – مكتبة مدبولي.

٩- «موسكو تعرف الدموع» دراسات – كتاب الأهالي - القاهرة ١٩٩١.

١٠- «الصعود إلى الجبال الشيشانية»- كتاب الاتحاد- دولة الإمارات ١٩٩٥.

١١- «نساء الكرملين» – مكتبة مدبولي - ١٩٩٧.

١٢- «رائحة الخبز» – قصص مترجمة - هيئة قصور الثقافة - ١٩٩٩.

١٣- «قطعة ليل» مجموعة قصصية - دار ميريت بالقاهرة - يوليو ٢٠٠٤- وصدرت منه طبعة ثانية عن الكتب خان.

١٤- «الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين» – دار الهلالي القاهرة – ٢٠٠٨.

١٥- «كناري» مجموعة قصصية مؤلفة – كتاب اليوم - أخبار اليوم- ديسمبر ٢٠١٠ – حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام ٢٠١١.

١٦- «عيون التحرير في الأدب والسياسة» – ٢٠١١ – دار كيان – القاهرة.

١٧- «رأس الديك الأحمر» – مجموعة قصصية مؤلفة – الكتب خان- القاهرة – ديسمبر ٢٠١٢.

١٨- «الجبل» مسرحية – هيئة قصور الثقافة – ٢٠١١- فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام ٢٠١١.

١٩- «أوراق روسية» مقالات - كتاب اليوم الأخبار – مايو ٢٠١٣.

٢٠- «لقاء عابر» قصص روسية مترجمة – كتاب اليوم - الأخبار- فبراير ٢٠١٤.

آنا أحمد الخميسي

- مواليد موسكو ١٩٨٧. حصلت على ليسانس الأدب واللغة والإنجليزية من جامعة القاهرة ٢٠١٠ – تكتب الشعر والقصة القصيرة باللغتين الروسية والإنجليزية. نشرت بعضًا مما تكتبه في صحف مصرية. هذه هي مساهمتها الأولى في كتاب منشور. تستعد لإصدار مجموعة قصصية خاصة بها